﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣﴾

[الصّفّ: 10 - 13]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

التَّرغيبُ بالإيمان والجهاد تخليةٌ وتحليةٌ يومَ المَعاد

لمّا حثَّ اللّهُ تعالى في الآيات السّابقة على الجهادِ في سبيلِهِ، ونهاهُم عن أن يكونوا مثلَ قوم موسى في التَّواكُل والتَّخاذُل، وقوم عيسى في العِصيانِ؛ ذكرَ هنا أنَّ الإيمان باللّه والجهادَ بالمالِ والنَّفس في سبيلِه تجارةٌ رابحةٌ[1].

ويمكن أن يقال: إنَّ النَّظمَ الكريمَ أرادَ أنْ يُقدِّمَ النُّصحَ لليهودِ بعدَ أنْ أسمعَهُم واقِعَهُم المُرَّ، فتلطَّفَ لهم بالقول، وأرادَ أنْ يدلَّهُم على التِّجارةِ التي يَعشقونها لربحِ المالِ النَّفيس لديهم؛ إذ لو كانَ المُخاطَبونَ هم المؤمنينَ؛ فكيفَ يُطلَبُ منهم الإيمانُ باللّه ورسولِه، إلّا أنْ يكونَ بمعنى: استمِرّوا على الإيمان، فدلَّ على أنَّهم أهلُ الكتاب الَّذين آمنوا باللّه، وتَرَكوا الإيمانَ برسولِه الكريم ﷺ، قال الرّازيُّ: "ومِنها: أنَّ الأمرَ بالإيمانِ كيفَ هو بعدَ قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فَنَقولُ: يُمْكِنُ أنْ يَكونَ المُرادُ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ المُنافِقينَ، وهُمُ الَّذينَ آمَنوا في الظّاهِرِ، ويُمْكِنُ أنْ يَكونَ أهْلَ الكِتابِ، وهُمُ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 244.

اليَهودُ والنَّصارَى؛ فَإنَّهُم آمَنوا بِالكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ، فَكَأنَّهُ قالَ: (يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا بِالكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ آمِنوا باللّه وبِمُحَمَّدٍ رَسولِ اللّه)"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تِجَٰرَةٍ﴾: من تَجَرَ تَجْرًا، من بابِ قتَلَ، واتَّجَرَ، والاسمُ التِّجارةُ، وهو تاجرٌ[2]، وكذلك اتَّجرَ يَتَّجِرُ، فهو تاجرٌ، والجمعُ تَجْرٌ، مثالُ صاحِب وصَحْب[3]، والتِّجارةُ عبارةٌ عن كلِّ مُعاملةٍ يُرادُ منها الرِّبحُ، سواءٌ كانت بيعًا أوْ شِرًى أوْ غيرَهما من المُعاملاتِ الرّابحة، وقد تُطلَقُ على المعاملةِ المعنويَّة[4]، كما في الآيةِ الَّتي نحنُ بصدَدِها.

2) ﴿وَمَسَٰكِنَ﴾: (سكن) أصلٌ واحدٌ مُطَّردٌ، يدلُّ على خلافِ الاضطرابِ والحَرَكة، يقالُ: سكنَ الشَّيءُ يَسكُنُ سُكونًا، فهو ساكِنٌ[5]، والمَسكنُ بفتحِ الكافِ وكسرِها: البيتُ، والجمعُ مَساكِنُ[6]، والأصلُ في هذه المادَّة: هو الاستقرارُ في مُقابلِ الحركةِ، وهو أعمُّ من الاستقرارِ المادّيِّ والرّوحيِّ[7]، والمرادُ به في الآيةِ: المكانُ الَّذي يسكنُ إليه، ويَستقِرُّ فيه أهلُ الجنَّة مُطمَئِنّينَ.

3) ﴿عَدْنٍۚ﴾: (عدن) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على الإقامة، تقولُ: عدنَتِ الإبلُ تعدِنُ عَدْنًا: أقامَتْ، ومنَ البابِ: المَعدِن، ويقيسونَ على ذلك، فيقولونَ: هو مَعْدِنُ الخيرِ والكرم[8]، والعدَنُ: أنْ تلزمَ الإبلُ المكانَ فتألفُهُ، ولا تَبرَحُهُ[9]، والمُرادُ به في الآيةِ: الإقامةُ في الجنَّة باعتبارِ الاستقرارِ فيها ودوامِها وتناسبِها وتلاؤُمِها الموجِب للسُّرور والبَهجة.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

والمعنى: يا أيُّها الَّذين آمنوا هل أُرشِدُكم إلى تجارةٍ عظيمةِ الشَّأن، تُنجيكم، وتخلِّصُكم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 531.
(2) الفيوميّ، المصباح المنير: (تجر).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (تجر).
(4) المصطفويّ، التّحقيق في الكلمات القرآنيّة: 1/ 338.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سكن).
(6) الفيوميّ، المصباح المنير: (سكن).
(7) المصطفويّ، التّحقيق في الكلمات القرآنيّة: 5/ 167.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدن).
(9) المصطفويّ، التّحقيق في الكلمات القرآنيّة: (عدن).

مِن عذابٍ شديدِ الألم يومَ القيامة؟ هذه التِّجارةُ هي أنْ تثبتوا على الإيمانِ باللّه ورسولِه، وتُجاهِدوا في سبيلِ اللّه بأموالِكم وأنفُسِكم، ذلكم الإيمانُ والجهادُ خيرٌ لكم على الإطلاق، فيغفِرُ لكم سيّئاتِكم، ويُدخلُكم جنّاتٍ تجري من تحتِها الأنهار، ومَساكِنَ طاهرةً زكيَّةً مُستلذَّةً، في جَنّاتِ عَدْنٍ، ذَلِكَ الجزاءُ الَّذي ذُكِر من المغفرةِ الفَوْزُ العَظيمُ الَّذي لا فوزَ بعدَهُ، وبَشِّرْ يا محمَّد المؤمنينَ بالنَّصرِ والفتح، وفي هذا دلالةٌ على صدقِ النَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّه أخبرَ عمّا يحصلُ، ويقَعُ في المستقبلِ منَ الأيّام على ما أخبرَهُ[1].

التِّجارةُ الرّابحةُ الإيمانُ باللّه ورسولِه والمُجاهَدة

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفصلِ في الآية:

فصلَ النَّظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عمّا قبلَه؛ لكونِه مُنقطِعًا عنه كمالَ الانقطاع، فالنِّداءُ إنشاءٌ لفظًا ومعنًى، وما قبلَهُ خبرٌ لفظًا ومعنًى، والغَرَضُ منَ الانقطاع التَّخَلُّصُ "إلى الغَرَضِ الَّذي افتُتِحَتْ به السّورةُ من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف: 2]، إلى قوله: ﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٞ ۝٤﴾ [الصّف: 4]، فَبَعْدَ أنْ ضُرِبَتْ لَهُمُ الأمثالُ، انتَقَلَ الكَلامُ من مَجالٍ إلَى مَجالٍ"[2]، فهو غيرُ مُرتبطٍ بما قبلَهُ من قصَّتَي موسى وعيسى عليهما السلام، وإنَّما ارتبطَ بما افتُتِحَت به السّورةُ منَ القولِ المُخالِفِ للفعلِ، الَّذي كانَ يُؤذي النَّبيَّ ﷺ، فأرادوا أنْ يُبيِّنَ لهم العملَ الَّذي لا يُؤذيه، ويُحِبُّه اللّهُ تعالى، فانفصلَ الكلامُ عمّا قبلَه؛ ليرتبطَ بما قبلَ ذلك.

بعدَ ضَرْبِ الأمثالِ يعودُ الكلامُ لأصلِ المَقال

معنى (يا) ودلالتُها:

استعملَ النظمُ الكريمُ الحرفَ (يا)، في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للدَّلالة على النِّداء، والغرضُ من النِّداء التنبيهُ إلى

تنبيهُ المُخاطَبين للإقبالِ على السَّماعِ والتوجيه المُبين

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1405.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 193، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 265.

أهمّيَّةِ ما نودوا من أجلِهِ[1]؛ لكَي يُقبِلوا على الإصغاءِ والإنصاتِ، وفي النِّداءِ إشارةٌ إلى غفلةٍ منَ المُخاطَبين تستدعي تنبيهَهم وإزالةَ الغَفلةِ عنهم؛ لكي يُقبلوا على السَّماع باهتمامٍ، والعملِ بمضمونِ الجُملةِ الَّتي جاءَ النِّداءُ لأجلِها.

دلالةُ الوصْلةِ (أيّ) في النِّداء:

استعملَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (أيّ) وصْلةً لنِداءِ المؤمنينَ، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لأنَّ نداءَ الموصولِ لا يكونُ مُباشرًا، فأُتي بـ(أيّ) للتَّوصُّلِ بها إلى ندائِهِ؛ إشعارًا بأهمّيَّةِ مُخاطبةِ المؤمنينَ بلفظِ الموصول، وإظهارًا لمزيدِ الالتفاتِ والإقبالِ من خلالِ تفخيمِ شأنِ المُخاطَبينَ بهذا النِّداء.

الاستعانةُ بالوصْلةِ تفخيمٌ للخطابِ وإيقاظٌ منَ الغَفْلة

دلالةُ الاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للدَّلالةِ على العُموم معَ الإبهامِ المحتاجِ إلى تفسيرٍ وبَيان، فيُقبلُ المُخاطَبونَ إلى النِّداء لسَماعِ ذلك الإيضاحِ بعدَ الإبهام؛ إذِ النُّفوسُ تتشوَّقُ إلى سَماعِ المُبهم؛ لتشوُّقِها إلى سماعِ الموضِّحِ والمُفصِّل والمُبيِّن، كما يوحي لفظُ الموصول بالتَّعظيمِ لهؤلاءِ المُخاطَبين بالنِّداء؛ لما في الإبهامِ مِن فَخامةٍ وإجلال.

الموصولُ في الكلامِ إجمالٌ يَعقِبُهُ إتمام

دلالةُ جملةِ الصِّلةِ ﴿ءَامَنُواْ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالجملةِ الفعليَّةِ الماضيَةِ صلةً للموصولِ، في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للدَّلالةِ على حُدوث ذلك الوصفِ فيهم على سبيلِ التَّحقُّقِ والقطعِ بالحُصول؛ لأنَّ الماضيَ مفيدٌ اتِّصافَ الفاعلِ بالوصف منذ أمَدٍ سحيقٍ، كما أنَّ خطابَهم بوصفِ الإيمان داعٍ لمزيدِ الإقبال؛ إذ يوحي بالتَّشريفِ والتَّكريم؛ لأنَّ الإيمان تصديقٌ وإذعان، والمتَّصِفُ بذلك يُشْعِرُ بالقيمة والامتنان، فيُقبلُ

نداءُ المُخاطَبينَ بشِعارِ الإيمان داعٍ لمزيدٍ منَ الإصغاءِ والقَبولِ والإذعان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 52.

إلى مضمونِ النِّداء إقبالَ المتشوِّقِ المُهتمِّ معَ العِرفان، وبهذا المُنادَى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ارتبطَ هذا النِّداءُ بالنِّداءِ الوارِدِ أوَّلَ السّورة، المتضمِّنِ للعتابِ على قولٍ مُخالفٍ للعمل، معَ محبَّةٍ للجهاد في سبيلِ اللّه صفًّا مَرصوصًا، فأُعيدَ الخطابُ مُجدَّدًا بلفظِ الإيمان؛ لا للعتابِ والتَّعنيف، بل للإرشادِ والدَّلالة على ما يَنبغي العملُ به.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ ﴿هَلْ﴾ التَّصوُّريَّة:

التَّلطُّفُ في العَرْض موجِبٌ لتحقيقِ الغَرَض

استعملَ النَّظمُ الكريمُ أداةَ الاستفهام ﴿هَلْ﴾ التَّصوريَّة، في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾؛ للدَّلالة على العَرْضِ بطريقِ النُّصحِ والإرشادِ والتَّلطُّف، قال الرّازيُّ: "(هَلْ) بِمَعْنَى الاستفهام، ثُمَّ يَتَدَرَّجُ إلَى أن يَصيرَ عَرْضًا وحَثًّا، والحَثُّ كالإغراءِ"[1]، واختارَ النَّظمُ الكريمُ للعَرْض أداةَ الاستفهام (هل) التَّصوريَّة، ولم يقلِ النَّظمُ: (ألا أدلُّكم) بأسلوبِ العَرْضِ المُباشَر الوضعيِّ؛ لأنَّ الاستفهام في أصلِ وضْعِه يدلُّ على عدمِ العِلْمِ بالشَّيء، واستُعمِلَ هنا للدَّلالة على عدمِ علْمِ المُتكلِّم بموقِفِ المخاطَب من العَرْض المقدَّم، وهو الدَّلالة والإرشاد، أهو يريدُ ذلك أم يمتنعُ عن قبولِه؟ ولذا قال ابن عاشور: "والاستفهامُ مُستعمَلٌ في العَرْضِ مَجازًا؛ لأنَّ العارِضَ قَد يَسألُ المَعروضَ عليه؛ ليَعلَمَ رَغْبَتَهُ في الأمرِ المَعْروض، كَما يُقالُ: هَل لَكَ في كَذا؟ أو هَل لَكَ إلَى كَذا؟ والعَرْضُ هُنا كِنايَةٌ عَنِ التَّشويقِ إلَى الأمرِ المعروض، وهو دلالَتُهُ إيّاهُم على تِجارَةٍ نافِعَةٍ"[2]، ويكونُ فيه كمالُ التَّلطُّفِ في العرض؛ إذ يجعلُ المخاطَبَ يختارُ المعروض من عدمِه، بخلاف ما لو قال: (ألا أدلكم)، فإنَّه يُفيدُ طلبَ العرض بشكلٍ مباشِر، ولذا قالَ البقاعيُّ: "ذُكِرَ بلفظِ الاستفهامِ تشويقًا؛ ليكونَ أوقعَ في النَّفس، فتكونَ له أشدَّ تقبُّلًا"[3]، وأمّا الاستفهام؛

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 531.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 193.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 34.

فإنَّه يُفيدُ السُّؤال عن المعروضِ وموقفِ المعروضِ عليه قَبولًا وعدمًا، فيكونُ مُتلطِّفًا في تقديم العَرْضِ، وقال القِنّوجي: "وذُكِرَ بلفظِه تشريفًا؛ لكونِه أوقَعَ في النَّفس"[1].

معنى الفعلِ المُضارع ﴿أَدُلُّكُمْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

محبَّةُ المُرشِدِ للمُستدلّين يدفعُهُ للتَّذكيرِ الاستمراريِّ المَكين

استعملَ النَّظمُ الكريمُ الفعلَ المضارعَ الواقعَ في حيّزِ الاستفهامِ المُستعملِ للعَرْضِ بطريقِ التَّلطُّف في الطَّلب، في قولِه تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾؛ للدَّلالةِ على الإبانةِ من المُرشدِ على سبيلِ التَّجدُّدِ الاستمراريِّ، مع دلالتِه على الحال أوِ الاستقبال، والغرضُ من ذلك إظهارُ رغبةِ فاعلِ الدَّلالة على الرَّغبة المستمرَّةِ في النُّصح والإرشادِ من دونِ انقطاع، كما أنَّ مادَّةَ الفعلِ (أدُلُّ) تُفيدُ التَّعليمَ بطريق النُّصح والمحبَّة والحرصِ على التَّعليم؛ خوفًا من ضياعِ المُستدلِّ في جَهالة الطَّريق، فليس المرادُ مفهومَ الهداية وإراءةِ الطَّريق إلى هذه الموضوعات، ولا الإرشاد وقصد الخير والصَّلاح، بل يُرادُ الإبانة وإراءةُ موضوعٍ مجهولٍ لهم حتّى يُبيَّن، ويتَّضحَ لهم، وهذا المعنى أقوى وآكَدُ وأقربُ في تفهيم المَعنى والإيصال إلى المطلوب"[2]، "وجيءَ بِفِعْلِ ﴿أَدُلُّكُمْ﴾؛ لإفادَةِ ما يُذْكَرُ بَعدَهُ مِنَ الأشياءِ، الَّتي لا يُهتَدَى إلَيها بِسُهولَةٍ"[3]، وفيه إشعارٌ بكونِ المخاطَبين في غفلةٍ عن ذلك الأمرِ المدلولِ عليه، كما أنَّ الفعل بمادَّتِه يدلُّ على مجرَّدِ الدَّلالة على العمل، وأمّا العملُ نفسُهُ؛ فهو اختيارٌ طوعيٌّ لمَن شاءَ، وأحَبَّ.

مرجِعُ ضميرِ الفاعلِ في ﴿أَدُلُّكُمْ﴾:

عظيم فضل الله ورسوله على إنقاذِ أهلِ الإيمان

يحتملُ فاعلُ الدَّلالةِ في قولِه تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ عَوْدَه إلى اللّه تعالى، وعودَهُ إلى الرَّسول ﷺ؛ فإنْ كان عائدًا إلى اللّه تعالى؛ فقد

(1) القنوجيّ، فتح البيان: 14/ 122.
(2) المصطفويّ، التّحقيق في الكلمات القرآنيّة: 3/ 226.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 194.

وردَ على لسانِ رسولِهِ، وإنْ كان عائدًا إلى الرَّسول ﷺ، فإنَّ اللّه قد أمرَهُ به، وفي ذلك إظهارٌ لعظيم فضل اللّه ورسولِه لإنقاذِ المؤمنينَ بأحبِّ الأعمالِ إليهما، قال ابن عاشور: "والظّاهِرُ أنَّ الضَّميرَ المُسْتَتِرَ في ﴿أَدُلُّكُمْ﴾ عائِدٌ إلَى اللّه تَعالَى؛ لِأنَّ ظاهِرَ الخِطابِ أنَّهُ موجَّهٌ مِنَ اللّه تعالى إلى المُؤْمِنينَ، ويَجوزُ أنْ يُجْعَل الضَّميرُ إلى النَّبيِّ ﷺ على تَقْديرِ قَوْلٍ مَحْذوفٍ"[1].

معنى ﴿عَلَىٰ﴾ ودلالتُها في ﴿أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ﴾:

أعلى درجاتِ الإيضاح الوقوفُ على المدلولِ بكلِّ ارتياح

استعملَ النَّظمُ الكريمُ حرفَ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾، في قولِه تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ﴾؛ للدَّلالة على استعلاءِ الدَّلالةِ على التِّجارةِ استعلاءً مجازيًّا، الغرضُ منه إظهارُ التَّمكُّن والسَّيطرة في وضعِ الدّالِّ للمدلولِ على التِّجارةِ، حتَّى إنَّه واقفٌ عليها وقوفًا حسيًّا؛ بحيثُ يراها، ويُحِسُّ بها، ويعلمُ أنَّ ذلك المدلولَ عليه صارَ عِلْمًا يقينيًّا له.

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿تِجَارَةٍ﴾:

التِّجارةُ مع الله رابحةٌ، فالسَّعيُ لها بكلِّ قوَّةٍ طامِحة

نكَّرَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿تِجَارَةٍ﴾، في قولِه تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم﴾؛ للدَّلالةِ على النَّوعيَّة؛ إذ هذه التِّجارةُ تختلفُ عن بقيَّة أنواعِ التِّجارات؛ لأنَّ الذي يدلُّ عليها هو اللّه ورسولُه، فهي تجارةٌ رابحة تتضمَّنُ سعادةَ الدّارين معًا، قال الهرريُّ: "التِّجارةُ: التَّصرُّفُ في رأسِ المال طلبًا للرِّبح، والتّاجرُ هو الذي يبيعُ، ويَشتري"[2].

دلالةُ الاستعارةِ في ﴿تِجَارَةٍ﴾:

ترغيبُ النُّفوسِ بالجِهاد رغبةً بالثَّوابِ مقابلَ الأجساد

استعارَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿تِجَارَةٍ﴾، في قولِه تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم﴾؛ لمبادلةِ الإيمانِ والجهادِ بالثَّواب؛ فقد شبَّهَ تلك المبادلةَ والمعاوضةَ المعنويَّة بالتِّجارةِ الحسّيَّة، التي تتمُّ فيها مبادلةُ السِّلعةِ بالمال لغرضِ الرِّبح، قال الهرريُّ: "جعلَ ذلك

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 193.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 261.

تجارةً تشبيهًا له في الاشتمالِ على معنى المبادلةِ والمُعاوضة؛ طلبًا لنيلِ الفضلِ والزّيادة، فإنَّ التِّجارة هي معاوضةُ المالِ بالمال لطمَعِ الرِّبح، والإيمانُ والجهادُ شُبِّها بها من حيثُ إنَّ فيهما بذلَ النَّفس والمالِ؛ طمَعًا لنيل رِضا الله تعالى والنَّجاةِ من عذابِهِ"[1]، والغرضُ من الاستعارة ترغيبُ النُّفوسِ في ذلك الأمرِ المكروه طبْعًا وجِبلَّةً؛ خاصَّةً الجهادَ وما قد يتضمَّنُهُ من إزهاقٍ للرّوح، لكنْ إذا أيقنَ المؤمنُ بأنَّ وراء ذلك رِبْحًا وثوابًا وجِنانًا؛ فإنَّه تهونُ نفسُهُ، وترغبُ في ذلك طلبًا للثَّواب.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿تُنجِيكُم﴾ مادَّةً وصيغةً:

أربحُ التِّجارات المُنجيةُ باستمرارٍ من المُهْلِكات

استعملَ النَّظمُ الكريمُ الفعلَ المضارع ﴿تُنجِيكُم﴾، في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذه التِّجارةَ مستمرَّةٌ على سبيل التَّجدُّدِ في عملية الإنجاءِ والتَّخليص، والسَّلامة والخروجِ من المآزقِ، كما دلَّ فعل (الإنجاء) المتعدّي بالهمزةِ على أنَّ هذه التِّجارةَ تجعلُكم ناجينَ، وتُصيِّرُكم خارجينَ إلى مكان السَّلامة والأمان، ومادَّةُ الإنجاءِ تفيدُ الإخراجَ والإنقاذَ والتَّخليصَ من الشَّرِّ والمَهلكة، و"وَصْفُ التِّجارَةِ بِأنَّها (تُنْجي مِنْ عَذابٍ أليم) تَجريدٌ لِلاستِعارَةِ؛ لِقَصْدِ الصَّراحَةِ بِهَذِه الفائِدَةِ لِأهَمِّيَتِها، ولَيْسَ الإنجاءُ مِنَ العَذابِ مِن شَأنِ التِّجارَةِ، فَهو مِن مُناسِباتِ المَعْنَى الحَقيقيِّ لِلعَمَلِ الصّالِحِ"[2].

الإسنادُ المجازيُّ في ﴿تُنجِيكُم﴾ ودلالتُهُ:

التِّجارةُ المُنجية هي التي لا غبن بعدها

أسندَ النَّظمُ الكريمُ الإنجاءَ إلى (التِّجارة)، في قولِه تعالى: ﴿تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم﴾، والمُنجي في الحقيقة هو الله تعالى، لكنْ لمّا كان الإيمانُ بالله والجهادُ في سبيله أمارةً على طاعةِ الله تعالى؛

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 262.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 194.

أسندَ الإنجاءَ إليها، قال الهرريُّ: "أي: تكونُ سَببًا لإنجاءِ اللّه إيّاكم وتخليصِه"[1]، والغرضُ من ارتكاب المجازِ العقليِّ بيانُ قيمةِ تلك التِّجارةِ، والتَّعظيمُ من شأنِها، وإعطاؤها الدَّورَ والأثرَ البالغَ، حتّى يقومَ المخاطَبُ بذلك خيرَ قيامٍ، فيُبادرَ إلى تلك التِّجارةِ وعقدِ تلك الصَّفقةِ المُربِحة.

النَّعتُ بالجملةِ الفعليَّة ﴿تُنجِيكُم﴾:

تجارةٌ تُنجي خيرٌ من خسارةٍ تُردي

نعتَ النَّظمُ الكريمُ التِّجارةَ بالجملة الفعليَّة، في قوله تعالى: ﴿تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ﴾؛ للدَّلالة على تقييدِ تلك التِّجارةِ وتحديدِ وظيفتها، فهي تختلفُ عن كلِّ التِّجارات، التي تكون الغايةُ منها تحقيقَ الرِّبح الوفير والنَّجاةَ من الإفلاس، وكلاهما أمرانِ زائلانِ، إلّا أنَّ هذه التِّجارةَ مُنجيةٌ من واقعٍ أليم لا يقبلُ الزَّوال، قال الهرريُّ: "وأفادتِ الصِّفةُ المقيِّدة أنَّ مِن التِّجارةِ ما يكونُ على عكسِها، كما أشارَ إليها قولُه تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ [فاطر: 29]، فإنَّ بوارَ التِّجارة وكسادَها يكون لصاحبِها عذابًا أليمًا، كجمعِ المالِ وحفظِه ومنعِ حقوقِه، فإنَّه وبالٌ في الآخرة؛ فهي تجارة خاسرةٌ"[2].

معنى ﴿مِّنْ﴾، ودلالتُها:

الإنجاءُ من العذاب بيانٌ للتِّجارةِ مع الكريمِ الوهّاب

استعملَ النَّظمُ الكريمُ ﴿مِّنْ﴾ الجارَّةِ، في قوله تعالى: ﴿تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ﴾؛ للدَّلالةِ على الابتداءِ المَمزوج بالبيان؛ إذ يبدأ الإنجاءُ من العذابِ؛ ليصِلَ بالنّاجي إلى أعلى المقاماتِ وأرفع الكرامات، و﴿مِّنْ﴾ هنا للابتداءِ المجازيِّ؛ إذِ العذاب ليس مكانًا يبدأ الإنجاءُ منه، لكنَّه جُعِلَ كالمكانِ حتّى يتمَّ التَّحوُّلُ والانتقالُ منه.

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿عَذَابٍ﴾:

نكَّرَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿عَذَابٍ﴾، في قوله تعالى: ﴿تِجَـٰرَةٍ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 260.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 260.

﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ﴾؛ للدَّلالة على التَّفخيم والتَّعظيم، فهي تجارةٌ واحدةٌ ذاتُ نوعٍ مختلفٍ، تُخلِّصُ من عذابٍ عظيمٍ لا يُطاقُ، وفي لفظِ ﴿عَذَابٍ﴾ مجازٌ مُرسَلٌ قرينتُه ﴿مِّنْ﴾؛ إذ أطلقَ الحالَّ، وأرادَ به المحلَّ، فهي تُنجي من جهنَّمَ التي يحلُّ فيها العذاب، لكنَّ النَّظمَ الكريمَ جعلَ النَّجاةَ من العذاب؛ لأنَّه محطُّ المرارةِ في جهنَّم.

الإنجاءُ من الحالِ إنجاءٌ من مرارةِ المَحَلِّ

دلالةُ النَّعتِ بصيغةِ ﴿أَلِيمٍ﴾:

نعتَ النَّظمُ الكريمُ (العذابَ) بصيغةِ (فعيل) في قولِه تعالى: ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ للدَّلالة على أنَّها لا تُنجي من أيِّ عذاب، بل من عذابٍ شديدِ الإيلام لا يُطاق، فهي تجارةٌ تُخلِّصُ الإنسان من أعظمِ صورِ العذاب وأشكالِه، قال الهرريُّ: ﴿عَذَابٍ﴾، أي: "مؤلم جسمانيٍّ - وهو ظاهرٌ - وروحانيٍّ وهو التَّحسُّرُ والتَّضجُّرُ"[1]، ودلَّت صيغةُ (فعيل) في السّياق على أنَّها بمعنى اسمِ المفعول، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّ العذابَ من شدَّتِه يتلوَّى، ويتألَّمُ.

تألُّمُ العذابِ وتلوّيه، فتُنقذُهُ التِّجارةُ، وتُنجيه

دلالةُ الفصلِ في ﴿تُؤْمِنُونَ﴾:

فصلَ النَّظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ عمّا قبلَه؛ لكونِه بمنزلةِ البيانِ للتِّجارةِ المُنجيةِ من العذابِ الأليم، فيكون بينَهما علاقةُ كمالِ الاتِّصال، قال الطَّيبيُّ: "بيانٌ لجملةِ قولِه: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على سبيلِ الاستئناف، وعُلِمَ أنَّ البيانَ والمبيَّنَ واحدٌ"[2]، أو لأنَّها استئنافٌ بيانيٌّ لوقوعِها في جوابِ سؤالٍ مُقدَّر مُفادُه: ما تلك التِّجارةُ المُنجية؟ فأجاب بذلك، فتكون العلاقةُ شِبهَ كمالِ الاتِّصال، وعلى كلٍّ من التَّوجيهين فإنَّ البيانَ والتَّفسيرَ وقعَ بهذه الجملة، فيكونُ هنالك إجمالٌ ثمَّ تفصيلٌ، والنَّفس تتشوَّقُ لسماعه، قال الهرريُّ: "وهذا كلامٌ مُستأنَفٌ واقعٌ في

الحاصلُ بعدَ الطَّلَب أعزُّ منَ المُنساقِ بلا تَعَب

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 260.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 392.

جوابِ سؤالٍ مقدَّرٍ، فكأنَّهم قالوا: كيف نعملُ؟ أو ماذا نصنعُ؟ فقيل: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، وهذا أسلوبٌ يُفيدُ التَّشويقَ والاهتمامَ بما يأتي بعدَه، كما تقولُ: هل أدلُّكَ على عالمٍ عظيمٍ ذي خُلُقٍ حَسَنٍ وعلْمٍ فيّاض؟ هو فلانٌ، فيكونُ ذلك أروعَ في الخِطاب وأجلبَ لقَبولِهِ"[1].

معنى الفعلِ المُضارع ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

استمرارُ الإيمانِ بالقلْبِ مُؤَدٍّ إلى طمأنينةٍ بلا تَعَب

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعل المضارع ﴿تُؤْمِنُونَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على حدوثِ ذلك الإيمان على سبيلِ الاستمرارِ، "وذَلِكَ تَعريضٌ بِالْمُنافِقينَ، وتَحذيرٌ مِنَ التَّغافُلِ عَن مُلازَمَةِ الإيمانِ وشُؤونِهِ"[2]، وتجدُّدُ الإيمانِ في القلب واستمرارُهُ بمعنى تكامُلِه، فيزدادُ بكثرةِ النَّظرِ في الأدلَّة والبيِّنات، ويتجذَّر، كما دلَّت مادَّةُ الإيمانِ على التَّصديقِ الَّذي يؤدّي إلى الشُّعور بالأمانِ والطُّمأنينة والرّاحة، فلا تُقلقُهُ الشُّكوكُ، ولا تُؤرِّقُه الأوهامُ والظُّنون.

دلالةُ الجملةِ الخبريَّة على الطَّلَب:

الامتثالُ السَّريع للخطابِ اللَّطيفِ البديع

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالجملةِ الخبريَّة، في قوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على الطَّلب، فهي جملةٌ خبريَّةٌ لفظًا، طلبيَّةٌ معنًى، والتَّقديرُ: (آمِنوا باللّه ورسوله)؛ بدليلِ جزمِ الفعلِ المضارعِ في قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾، قال الطَّيبيُّ: "قال الزَّجّاج: وقد غَلِطَ بعضُ النَّحويين، فقال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ جوابُ ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾، وذلك أنَّه ليس إذا دلَّهم النَّبيُّ ﷺ على ما ينفعُهُم؛ غفرَ اللّهُ لهم، إنَّما يغفرُ اللّه لهم؛ إذا آمَنوا، وجاهَدوا، وإنَّما هو جوابُ: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ﴾؛ لأنَّ معناه معنى الأمر، أي: آمِنوا باللّه ورسوله، وجاهِدوا؛ يغفرْ لكم، أي: إن فعلتم ذلك؛ يَغفِرْ لكم"[3]،

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 261.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 194.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 392.

ووجَّهَ الزَّمخشريُّ قول من يرى أنَّ ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ جوابَ ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ فقال: "وجهُهُ أنَّ متعلَّقَ الدَّلالةِ هو التِّجارة، والتِّجارةُ مفسَّرةٌ بالإيمان والجهاد، فكأنَّه قيل: هل تتَّجرونَ بالإيمانِ والجهادِ؟ يغفرْ لكم"(1)، والغرضُ من التَّعبيرِ عن الطَّلب بالخبرِ؛ الدَّلالةُ على ما ينبغي عملُهُ من سُرعةِ الامتثال؛ إذِ التِّجارةُ الرّابحة لا تحتاجُ إلى جبرٍ في مزاولتِها، بل إلى الهجومِ لعمَلِها وإنجازِها، فكأنَّهم بمُجرَّدِ سَماع ذلك امتثلوا للخطابِ، فأقبلوا على العملِ والاعتقاد، ذلك: "أنَّ المؤمنَ الرّاسخَ في الإيمان لمّا كان مَظِنَّةً لحصولِ الامتثالِ؛ صارَ كالمحقَّقِ منه ذلك"(2)، فأخبرَ عنهم بطريقِ الإخبارِ عن الواقع، قال الهرريُّ: "وهذا خبرٌ بمعنى الأمر، جيءَ به للإيذانِ بوجوبِ الامتثال، فكأنَّه قد وقعَ، فأخبرَ بوقوعِهِ، كما تقولُ: غفرَ اللّهُ لهم، ويَغفرُ الله لهم، جُعِلَتِ المغفرةُ حاصلةً لقوَّةِ الرَّجاء، كأنَّها كانت، ووُجِدَتْ، وقِسْ عليه، نحو: سلَّمَكُم الله، وعافاكم الله، وأعاذَكُمُ الله"(3)، كما أنَّ تحويل الطَّلبيِّ إلى إخباريٍّ أدْعَى لقَبولِ المخاطَبِ الأمرَ والامتثالِ له.

معنى (الباءِ) ودلالتُها في ﴿بِٱللَّهِ﴾:

الاعتقادُ الجازم ارتباطٌ وثيقٌ لازم

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بحرفِ الجرِّ (الباء)، في قولِه تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالة على التَّعديةِ، وليفيدَ تضمينَ فعلِ (الإيمان) معنى التَّصديقِ والثِّقةِ والاعتقاد، كما تدلُّ (الباءُ) في أصلِ وضْعِها على الإلصاقِ، فيكون الإيمانُ مُلتصِقًا بالله تعالى التصاقًا مجازيًّا، يقومُ على الارتباطِ العميق والصِّلة القويَّة القلبيَّةِ بالله تعالى.

دلالةُ الاسمِ الجليلِ (الله):

عَظَمةُ الاعتقاد بالمُتنزَّه عن الأندادِ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن متعلَّقِ الإيمانِ والتَّصديق بالاسمِ الجليلِ،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 527.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 392.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 261.

في قولِه تعالى: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالة على عظَمةِ ذلك الإيمانِ بعظمة المصدَّقِ به، كما يدلُّ الاسم الكريمُ بما يُفهَمُ من معناه الدّالِّ على الذّات المتَّصفةِ بصفات الكمالاتِ والجلال على تعليلِ فعلِ الإيمان، فيكونُ من تعليقِ الحُكم بما يُفهِمُ معنى الوصفِ؛ للدَّلالةِ على العِلّيَّة[1].

معنى (الواوِ) ودلالتُها في ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾:

الإيمانُ الصَّحيح بالاعتقادِ بالله ورسوله الفصيحِ

عطفَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الواو)، في قولِه تعالى: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على الإشراكِ في حكمِ الإيمان والتَّصديقِ بينَ الله تعالى ورسولِه، وأنَّ الإيمان لا يكمُلُ إلّا باعتقادِ الله ربًّا ومحمَّدٍ ﷺ نبيًّا ورسولًا، ففي ذلك العطفِ إرشادٌ لمتعلِّقِ الإيمان الصَّحيح؛ ردًّا على مَن يعتقدُ بأنَّ الإيمانَ بالله وحدَهُ كافٍ لصحَّة الإيمان.

نُكْتَة التَّعبير بوصف (الرَّسول):

التَّصديقُ بالرَّسولِ الكريم تصديقٌ بالمُرسِلِ الرَّحيم

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن النَّبيِّ ﷺ بلفظِ ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾، في قوله تعالى: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على علَّة الإيمان بمحمَّد ﷺ، وهو الوصفُ العنوانيُّ له بالرُّسوليَّة؛ إذ كونُه مُرسَلًا من الله تعالى علَّةٌ للإيمانِ به؛ إذ تكذيبُهُ تكذيبٌ للمُرسِلِ الَّذي أرسلَهُ بالهدى ودينِ الحقِّ، فالعدولُ عن الاسمِ العلَمِ الشَّريف إلى الوصفِ تعليلٌ للإيمانِ به.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾:

تشريفُ الرَّسول يوجب طاعتَهُ بكلِّ الأحكامِ والأُصول

أضافَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (الرَّسول) إلى الضَّمير العائدِ إلى الله تعالى، في قولِه: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على التَّشريفِ والتَّكريم؛ فقدِ اكتسبَ المضافُ من المضافِ إليه عَظَمةً ومكانةً، وبيانًا لسرِّ الإيمانِ له، وهو أنَّه رسولُ مَن خَلَقَ العوالمَ كلَّها، فيكونُ

(1) حاشية اليزديّ على تهذيب المنطق للتّفتازانيّ، ص: 10.

الإيمان به واجبًا لانتسابِه إليه، واختيارِ الله تعالى له رَسولًا بينَهُ وبينَ خَلْقِهِ.

دلالةُ تقديم الذّاتِ الجليلة على ذاتِ الرَّسولِ الكريم:

الإيمانُ بالله الجليل سرٌّ للإيمانِ بنبيِّه الخليلِ

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ الإيمانَ بالله تعالى على الإيمانِ برسوله ﷺ، في قولِه تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الإيمان بالله تعالى مقدَّمٌ على الإيمانِ بغيرِه؛ إذ بالاعتقادِ بالله تعالى وبكَمالاته يتحقَّقُ الاعتقادُ بمَن أرسلَه، وإنْ كان الرَّسولُ مُرشِدًا للإيمان بالله تعالى، و(الواوُ) وإنْ كانت لمطلقِ الجمع؛ فإنَّ السّياق يفيدُ أنَّ الإيمان بالإله الحقِّ مقدَّمٌ على الإيمانِ بالنُّبوَّة الحقَّة، وإنْ كانتِ النُّبوَّةُ مُخبِرةً عن الإله الحقِّ.

دلالةُ (الواو) في ﴿وَتُجَٰهِدُونَ﴾:

الاقتصارُ على الجهاد إبرازٌ لمكانتِه عندَ الشُّطوبِ الشِّداد

عطفَ النَّظمُ الكريمُ الجملةَ الفعليَّةَ، في قولِه تعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ على ما قبلَها؛ للدَّلالةِ على عطفِ نوعٍ من العملِ الصّالح على الإيمانِ؛ بيانًا للمُغايرةِ بينَ رُتبتَي الاعتقادِ والعمَل، وأنَّ الأعمالَ لا تُقبلُ ما لم تكُن عن إيمانٍ، وأهمّيَّةِ العمل في تحويلِ الاعتقاد إلى سلوكٍ دائم، واقتصرَ النَّظمُ الكريمُ من الأعمال الصّالحةِ على الجهادِ؛ لأنَّهُ الأنسبُ في سياقِ السّورةِ التي تتحدَّثُ عن الصَّفِّ والوحدةِ في القتال، والتَّلاحُم مع النَّبيِّ في الجهاد، قال ابن عاشور: "وإذ قَد كانَ الخِطابُ لِقَومٍ مُؤمِنينَ فَإنَّ فِعْلَ ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ مَعَ ﴿وَتُجَٰهِدُونَ﴾ مُرادٌ بِهِ: تَجمَعونَ بَينَ الإيمانِ بِالله ورَسولِه، وبَينَ الجِهادِ في سَبيلِ الله بِأموالِكُم وأنفُسِكُم؛ تَنويهًا بِشَأنِ الجِهادِ"[1].

دلالةُ الفعلِ المضارعِ (تُجاهدون) مادَّةً وصيغةً:

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعل المضارعِ، في قولِه تعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 194.

المبالغةُ في الجهاد مطلوبةٌ على سبيلِ الازدياد

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ لهذا العمَلِ الصّالحِ، كلَّما دعَتِ الدَّواعي له، وتطلَّبَتْهُ الظُّروفُ والأزَمات، وهذا العملُ الصّالح استقرَّتْ له صيغةٌ صرفيَّةٌ في الاستعمالِ، وهي صيغةُ (فاعل) الدّالَّةُ على المُبالغة والكثرة؛ بيانًا لما يحتاجُهُ هذا العمل من تعَبٍ ومشقَّةٍ واستعدادٍ وتَضحيات، والفعل ﴿وَتُجَٰهِدُونَ﴾ بمادَّته المأخوذةِ من (الجُهد) دالٌّ على التَّعبِ والمشقَّةِ والعَناء، ولم يقُلِ النَّظمُ: (تقاتلون)، كما عبَّر بقولِه من قبلُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا﴾؛ لأنَّ المراد بالجهادِ ما هو أعمُّ من القتال، وهو بذلُ الجُهد والطّاقةِ في نُصرة الإسلام، الذي يكونُ بالقتال وغيرِه، قال الهرريُّ: "الجهادُ له ضروبٌ شتّى: جهادٌ للعدوِّ في ميدانِ القتال لنُصرةِ الدّين، وجهادٌ للنَّفس بقهْرِها ومَنْعِها عن شَهَواتها التي تُرديها، وجهادٌ بينَ النَّفْسِ والخَلْقِ بتَركِ الطَّمَعِ في أموالِهم والشَّفقةِ عليهم والرَّحمةِ بهم، وجهادٌ بين المَرءِ والدُّنيا بألّا يتكالبَ على جمعِ حُطامها، وألّا ينفق المالَ إلّا فيما تُجيزه الشَّرائعُ، وتقرُّه العقولُ السَّليمة"[1].

معنى ﴿فِي﴾ ودلالتُها:

تحديدُ الطَّريق أساسٌ للجهادِ عندَ التَّحقيق

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بحرفِ الجرِّ ﴿فِي﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالة على الظَّرفيَّة؛ إذ شبَّهَ المنهجَ الإلهيَّ بالسَّبيل والطَّريق تمييزًا لهُ عن بقيَّةِ السُّبُل، فيكونُ وقوعُ الجهادِ في ذلك الطَّريق وُقوعًا حقيقيًّا، وإنْ كانتِ الظَّرفيَّةُ بالنَّظرِ للمُستعارِ له مجازيَّةً، وتحتملُ ﴿فِي﴾ أن تكون للسَّببيَّة بمعنى (الباء)، أي: تجاهدونَ بسببِ أمرِ الله وشأنِه ومَنهجِه، ومِن ثَمَّ قالَ البقاعيُّ: "أي: بسببِ تسهيلِ طريقِ المَلِكِ الأعظمِ الموصِلِ إليه، الَّذي لا أمرَ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 262.

لغيرِه، بحيثُ يكونُ ظرفًا لكم في جميعِ هذا الفعلِ، فلا شيءَ يكونُ منه خارجًا عنهُ"[1]، فيكونُ مِن جَعْلِ السَّببِ كالظَّرف؛ للدَّلالةِ على المبالغةِ بالعملِ بالسَّبب، حتّى كأنَّه محيطٌ بهم، ففي الحرفِ ﴿فِي﴾ استعارةٌ تبعيَّةٌ حينَئذٍ.

دلالةُ الاستعارةِ في ﴿سَبِيلِ﴾:

المُـــضيُّ عـلى السَّبيلِ موصِلٌ للخيرِ الكَبير

استعارَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (السَّبيل)، في قولِه تعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالة على المنهجِ والقضيَّة، فقد شبَّهَ المنهجَ الإلهيَّ والدّينَ الإسلاميَّ بالسَّبيلِ بمعنى الطَّريق، الَّذي يوصِلُ إلى الخيرِ والفَلاح، ثمَّ حذفَ المشبَّهَ، وأبقى المشبَّهَ به على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة، وفي تشبيه المنهجِ والدّين بالسَّبيل بيانٌ لكونِ هذا الطَّريقِ مُذلَّلًا مُعبَّدًا موصِلًا بكلِّ يُسرٍ إلى الرِّضا الإلهيِّ، ولذا اختار النَّظمُ (السّبيلَ) على (الطَّريق).

دلالةُ الإضافةِ في ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

سـبـيـلُ الـلـه مـوصِلٌ للخير، وبـقـيَّـةُ الـسُّـبُـل فـيـهـا الـضَّـررُ والضَّير

أضافَ النَّظمُ الكريمُ (السَّبيل)، إلى اللّه تعالى في قولِه: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّعيينِ والتَّعريف؛ تمييزًا له عن بقيَّةِ السُّبُلِ والطُّرُقِ الَّتي لا تصلُ إلى خيرٍ وفلاحٍ وسعادة؛ إذ يكتسبُ (السَّبيلُ) بإضافته إلى اسم الجَلالة - الدّالِّ على كلِّ جَمالٍ وكَمال - شَرَفًا لذلك السَّبيل ومكانةً وجلالًا؛ لأنَّ خالقَ كلِّ شيءٍ أضافَهُ لنفسه، فما بقيَّةُ السُّبُلِ إلّا طرقٌ غيرُ موصِلةٍ لشَيءٍ.

دلالة تقديم الجارِّ والمجرور ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

كـلُّ مـا يُـقـدَّم نعمةٌ منَ النِّعَم

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ الجارَّ والمجرورَ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، على الجارِّ والمجرورِ أيضًا: ﴿بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾؛ للدَّلالة على أهمّيَّةِ النِّيَّة والقصدِ قبلَ ذِكرِ ما يَبذلونَهُ من غالٍ ونفيس، فيكون التَّقديمُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 35.

دالًّا على تحديدِ الجهةِ المبذول من أجلها؛ ليُعتدَّ بعمَلِها، ولأنَّها أعظمُ من كلِّ مالٍ ونفس؛ لأنَّها التي منحتِ الإنسانَ المالَ والنَّفسَ وكلَّ النِّعَم.

مَعنى (الباءِ) ودِلالتُها في ﴿بِأَمۡوَٰلِكُمۡ﴾:

تقديمُ النَّفسِ والمالِ وُصولًا إلى دَرجاتِ الكَمال

استعملَ النَّظمُ الكريمُ حرفَ الجرِّ (الباء)، في قولِه تعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾؛ للدَّلالةِ على شبه الآلة والاستعانةِ المُنزَّلِ مَنزلتَها، فقولُنا: (كتبتُ بالقلم)، أي: مُستعينًا بهذه الآلةِ لتحقيقِ الكتابة، ولم يذكُرِ النَّظمُ الكريمُ آلاتِ الجهادِ كالسَّيفِ وما في معناه، وإن كان هو الآلةَ في الحقيقة؛ لأنَّ المرادَ بالجهاد ما هو أعمُّ من القتالِ، فيكونُ ببذلِ المالِ أوِ النَّفس في طريقِ اللّه، عن طريقِ المُقاتلةِ بالسَّيف أوِ الجري في سبيلِ الدَّعوة، مُسترخصًا المالَ والنَّفسَ والرّاحةَ والصِّحَّةَ من أجلِ الدَّعوةِ والقضيَّة.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿بِأَمۡوَٰلِكُمۡ﴾:

تقديمُ النَّفيسِ والغالي معَ امتلاكِهم للأموال

أضافَ النَّظمُ الكريمُ (الأموالَ) إلى ضميرِ المُخاطَبينَ، في قولِه تعالى: ﴿بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّعريفِ والتَّعيين، فهي أموالُ المُجاهدينَ الَّذينَ بذلوها قُربةً للّه تعالى، وأفادَتِ الإضافةُ التَّملُّك، وهم مع ذلك يَدفعونَ ما يَمتلكونَهُ ابتغاءَ مَرضاتِ اللّه.

معنى (الواو) ودلالتُها في ﴿وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾:

التّرقّي في البَذل مُراعاةٌ لجَهدِ المُقِلّ

عطفَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الواو)، في قولِه تعالى: ﴿بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾؛ للدَّلالة على التَّرقّي في بذلِ ما يَمتلكونَهُ من غالٍ ونفيسٍ من أجلِ الدَّعوة والمنهجِ الرَّبّانيِّ، فقد قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ (الأموالَ) على (الأنفُس)؛ للتَّرقّي في درجاتِ البذل، إذِ المالُ عزيزٌ على النَّفس، إلّا أنَّ النَّفس أعلى وأعظَمُ، وذلك التَّرقّي متناسِبٌ مع الفعلِ المضارع (تُجاهدون) الدّالِّ على التَّجدُّدِ في البذلِ، بحيثُ يترقّونَ في منازِلِه، ويَصعدونَ في مَدارجِه، قال الهرريُّ: "وقدَّمَ (الأموالَ) على

(الأنفس)؛ لأنَّها هي الَّتي يُبدأ بها في الإنفاقِ والتَّجهُّز إلى الجهاد، أو لأنَّ الإنسان رُبَّما يَضِنُّ بنفسِه، أو للتَّرقّي من الأدنى إلى الأعلى، أو لأنَّه إذا كان له مالٌ؛ فإنَّه يُؤخَذُ به النَّفسُ لتغزو"[1].

دلالةُ الإضافةِ في ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾:

بـذلُ النُّـفـوسِ والمُـهَـجِ وُصـولًا إلى رِفعةِ الدَّرَج

أضافَ النَّظمُ الكريمُ (الأنفس) إلى ضميرِ المخاطَبين، في قوله تعالى: ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾؛ للدَّلالة على التَّعيينِ والتَّعريف، والغرضُ من ذلك تحديدُ تلك الأنفسِ التي هي أعزُّ ما يَمتلكون؛ ليبذِلوها في سبيلِ اللّه، في حينِ ذهبَ البقاعيُّ إلى أنَّ النَّظمَ الكريمَ قدَّمَ الأموال على الأنفس: "لعزَّتِها في ذلك الزَّمان، ولأنَّها قوامُ الأنفُس والأبدان، فمَن بذلَ مالَهُ كلَّهُ؛ لم يبخَلْ بنفسِه؛ لأنَّ المالَ قوامُها، ولمّا قدَّمَ القوامَ؛ أتبعَهُ القائمَ به، فقال: ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾"[2].

دلالةُ الفصلِ في ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ﴾:

توكيدُ الخيريَّة ترغيبٌ في الهدفِ والقضيَّة

فصلَ النَّظمُ الكريمُ الجملةَ، في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ عمّا قبلها؛ لكمالِ الاتِّصال؛ إذ تُنزَّلُ هذه الجملةُ ممّا قبلَها منزلةَ التَّوكيد والتَّقوية؛ إذ بعدَ أنْ أخبرَ النَّظمُ الكريمُ أنَّ الإيمانَ والجهادَ أعظمُ تجارةٍ للإنسان؛ أكَّدَ ذلك بأنَّه الخيرُ والأنفعُ له، وبذلك يتحقَّقُ الجانبُ الماديُّ في التَّرغيبِ بكونه تجارةً، والجانبُ المعنويُّ بكونِه الخيرَ النّافع.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾:

الإيمانُ والجهاد أعظمُ ما يتحلَّى به العِباد

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ باسمِ الإشارة البعيدِ، في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ للدَّلالة على التَّعظيم والتَّفخيم، كما أنَّ الأصلَ في اسم الإشارة أن يكونَ مُحيلًا إلى أمرٍ حسّيٍّ؛ إلّا أنَّه نزَّلَ الأمرَ المعنويَّ من الإيمان والجهاد منزلةَ الحسّيِّ بجامعِ الظُّهور والوضوحِ وكمالِ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 261.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 36.

الامتياز، فعبَّر عنه باسمِ الإشارة الحسّيَّة، فـ: "الإشارَةُ بِـ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إلَى الإيمانِ والجِهادِ بِتَأويلِ المذكورِ ﴿خَيْرٌ﴾"[1]، واختار اسمَ الإشارة للبعيدِ؛ للدَّلالة على جلالةِ ذلك الصَّنيعِ وفخامتِهِ.

دلالةُ اسمِ التَّفضيل ﴿خَيْرٌ﴾:

أخبرَ النَّظمُ الكريمُ عن اسمِ الإشارة العائدِ إلى الإيمان والجهادِ، في سبيل الله باسمِ التَّفضيلِ ﴿خَيْرٌ﴾، في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه الأعظم منزلةً ومكانةً بين سائر الأعمال والاعتقادات، فهو الخيرُ الذي فيه سعادةُ الدّارين، ووجهُ الأخيريَّة على سائرِ العباداتِ أنَّهما بذلٌ للمالِ والرّاحة والجسمِ والوقت، بخلافِ بقيَّة العباداتِ، فمنها الماليَّةُ فقط، ومنها البدنيَّةُ فقط، مع أنَّ بذل المالِ إتلافٌ، وبذلَ المُهَج موتٌ، إلّا أنَّه خيرٌ وأنفعُ من كلِّ عمل؛ لأنَّ الثّواب المُترتِّبَ والأجرَ الثّابتَ أعظمُ من كلِّ ما يُبذَلُ، ويُقدَّمُ، قال ابنُ عطيَّة: "و﴿خَيْرٌ﴾ هنا يحتملُ أنْ يكونَ للتَّفضيل، فالمعنى: مِن كلِّ عملٍ، ويحتملُ أنْ يكون إخبارًا أنَّ هذا خيرٌ في ذاتِه ونفسِهِ"[2]، ورجَّح ابنُ عاشور المعنى الثّاني بقوله: "و﴿خَيْرٌ﴾ هَذا لَيسَ اسمَ تَفضيلٍ الَّذي أصلُهُ: أَخْيَرُ، ووزْنُهُ: (أَفْعَلُ)، بَل هو اسمٌ لِضِدِّ الشَّرِّ، ووزْنُهُ: (فَعْلٌ)"[3]، وحينَئذٍ يكونُ اسمُ التَّفضيل على غيرِ بابِهِ.

بَـــذْلُ المـــالِ والنَّفسِ إتلافٌ، لكنَّهُ للحسناتِ اقـــترافٌ وبالله اعتِراف

دلالةُ التَّنكيرِ في ﴿خَيْرٌ﴾:

نكَّرَ النَّظمُ الكريمُ الخبرَ ﴿خَيْرٌ﴾، في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّعظيمِ والتَّفخيم؛ إذ ما أعدَّ اللهُ للباذلينَ في الدُّنيا والآخرة من خيرٍ أمرٌ جليلٌ، لا يُقارَنُ به شيءٌ من أعمالِ

الخيرُ العظيم نصيبُ كلِّ كَريم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 195.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 304.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 195.

الطّاعات، ولو كانَ النَّفسَ والمالَ جَميعًا، ولذا قال ابن عاشور: "وجَمَعَ قَولُهُ: ﴿خَيْرٌ﴾ ما هو خَيرُ الدُّنيا وخَيرُ الآخِرَةِ"[1].

الموقعُ الإعرابيُّ لـ ﴿لَّكُمْ﴾:

نعتَ النَّظمُ الكريمُ النَّكرةَ ﴿خَيْرٌ﴾ بالجارِّ والمجرور ﴿لَّكُمْ﴾، في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك الخير العميمَ مختصٌّ بكم ولأجلِكم؛ إذِ اللامُ في ﴿لَّكُمْ﴾ للاختصاصِ أو للغرَض.

اختصاصُ الأخيريَّة بالمتقرِّبين لربِّ البريَّة

دلالةُ حرفِ الشَّرطِ ﴿إِن﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالحرفِ الشَّرطيِّ ﴿إِن﴾، في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على الشَّكِّ في وقوعِ العِلْم من المخاطَبينَ، الَّذين كان دأبُهم حِفظَ أموالِهم وأرواحِهم، حتَّى قالوا لنبيِّهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ [المائدة: 24]، فقد أفاد حرفُ الشَّكِّ قِلَّةَ علمِهم النّاجم عن ضعف إيمانهم وسوء مُعتقدهم.

الشَّكُّ في حصولِ العِلْم لقِلَّةِ الوعيِ عندَهم والفَهْم

دلالةُ الفعلِ النّاقص ﴿كُنتُمْ﴾:

استعملَ النَّظمُ الكريمُ الفعلَ النّاقصَ، في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك الأمرَ المُرغَّب فيه خيرٌ لكم؛ إنْ وُجِدَ عندكم عِلمٌ، فالشَّكُّ لم يتسلَّط على الاتِّصاف بالعِلْم، بل على وُجودِه وتحقُّقِه أصلًا؛ ليدلَّ على الشَّكِّ في تحقُّقِ العِلم فضلًا عن الاتِّصاف به، ولذا لم يقل: (إنْ عَلِمْتُم ذلك).

الشَّكُّ في الوجود شكٌّ في الاتِّصاف بلا حُدود

دلالةُ الفعلِ المُضارع ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن فعلِ (العِلْم) مُضارعًا، في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ، فيكون الشَّكُّ مُتسلِّطًا على وجودِ العِلْمِ وتحقُّقِه فيهم على سبيلِ الاستمرار، فيكون في ذلك شكٌّ بالعِلْم ووجودِه على سبيلِ الاستمرار.

الشَّكُّ في الاستمرار إثباتٌ للجهلِ بكلِّ إصرار

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 195.

دلالةُ تعليقِ الخيريَّة على العِلْم:

إلهابُ حميَّةِ الطّاعة، والتَّحفيزُ للعملِ بكلِّ شَجاعة

علَّق النَّظمُ الكريمُ حصولَ الخيريَّةِ وتحقُّقَها على العِلْم، في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، مع أنَّ الخيريَّةَ واقعةٌ لا محالةَ؛ سواءٌ كان لهم عِلمٌ بها أم لم يكُنْ، والجوابُ عنه: "أنَّ الشَّرطَ ليسَ على حقيقتِه، بل هو من وادي قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة: 278]، والمقصودُ بهذا الشَّرطِ التَّنبيهُ على المعنى الَّذي يَقتضي الامتثالَ، وإلهابُ الحميَّةِ للطّاعة، كما تقولُ لمَن تأمرُهُ بالانتصافِ مِن عدوِّه: إنْ كنتَ حُرًّا؛ فانتصِرْ، تريدُ أنْ تُثيرَ منه حميَّةَ الانتصارِ لا غير"[1]، وحملَ ابنُ عاشور الشَّرطَ على حقيقتِه، ورأى أنَّ الخطابَ معَ المؤمنينَ، ففيه "تَعريضٌ لَهُم بِالعِتابِ على تَولّيهِم يَومَ أُحُدٍ، بَعدَ أن قالوا: (لَو نَعلَمُ أيَّ الأعمالِ أحَبَّ إلَى اللّه؛ لَعَمِلناهُ)، فَنُدِبوا إلَى الجِهادِ، فَكانَ ما كانَ مِنهُم يَومَ أُحُدٍ، كَما تَقَدَّمَ في أوَّلِ السّورَةِ، فَنُزِّلوا مَنزِلَةَ مَنْ يُشَكُّ في عَمَلِهِم بِأنَّهُ خَيْرٌ؛ لِعَدَمِ جَريهِم على موجب العِلم"[2].

دلالةُ الموقعِ الإعرابيِّ لـ ﴿يَغْفِرْ﴾:

طبيعةُ التِّجارة الرِّبحُ والخَسارة

أوردَ النَّظمُ الكريمُ الفعلَ المضارعَ ﴿يَغْفِرْ﴾، في قولِه تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ مجزومًا؛ إمّا لكونِه في جوابِ الطَّلب ﴿تُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنَّه بمعنى (آمِنوا) أوْ بـ(إنْ) الجازمةِ المُقدَّرة، وقيلَ: في جوابِ الاستفهام ﴿هَلْ﴾، والتَّقديرُ على الأوَّل: (آمِنوا يغفِرْ لكم)، وعلى الثّاني: (إنْ تُؤمنوا؛ يغفرْ لكم)، قال الواحديُّ: "ثمَّ ابتدأ شرطًا آخَرَ مُضمَرًا، وأظهرَ جزاءَهُ، فدلَّ الجزاءُ الظّاهرُ على الشَّرط المُضمَر، وهو قولُه: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، على تأويل: (إنْ تَفعلوا ذلك

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 9/ 224.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 195.

يَغفِرْ لَكُم)"[1]، وأيًّا يكنْ؛ فإنَّ الموقعَ الإعرابيَّ دالٌّ على جزاءِ الإيمانِ والجِهاد، وبذلك اتَّضحتْ أركانُ التِّجارة من عمَلٍ وربحٍ مبنيٍّ عليه، واتَّسقَ الجوابُ معَ وصفِ التِّجارة؛ بأنَّها المُنجيةُ من عذابٍ أليم، فيكونُ الإنجاء متحقِّقًا من خلال غُفرانِ الذَّنْب، وأمّا القولُ الثّالثُ؛ فقد انتقدَهُ الزَّجّاج بقوله: "وقد غَلِطَ بعضُ النَّحويين، فقال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ جواب ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾، وذلك أنَّه ليس إذا دلَّهم النَّبيُّ ﷺ على ما يَنفَعُهم؛ غفرَ اللّه لهم، إنَّما يغفر اللّهُ لهم إذا آمَنوا، وجاهَدوا، وإنَّما هو جواب: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ﴾؛ لأنَّ معناه معنى الأمْر، أي: آمِنوا باللّه ورسوله، وجاهِدوا؛ يَغفرْ لَكُم، ويدلُّ عليه قراءةُ ابنِ مسعود"[2]، ودافعَ الزَّمخشريُّ عن القول الآنف بما مُفادُهُ: أنَّ قولَه: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلى آخره، بيانٌ لجملةِ قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على سبيل الاستئناف، وعُلِم أنَّ البيانَ والمبيَّنَ واحد، فبهذا الاعتبارِ كانَ جوابًا[3]، وقال الرّازيُّ في توجيهه: "إنَّ ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ في معنى الأمرِ عندَه، يقال: هل أنتَ ساكتٌ؟ أي: اسكُتْ، وبيانه: أنَّ ﴿هَلْ﴾ بمعنى الاستفهام، ثمَّ يتدرَّجُ إلى أنْ يصيرَ عرْضًا وحثًّا بمعنى (ألا)، والحَثُّ كالإغراء، والإغراءُ أمرٌ"[4].

معنى الفعلِ المُضارع ﴿يَغْفِرْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

غـفرانُ الـذُّنـوب تـغـطـيـةٌ وسـتـرٌ للعُيوب

استعملَ النَّظمُ الكريمُ الفعلَ المضارعَ ﴿يَغْفِرْ﴾ مُضارِعًا، في قولِه تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ؛ إذ غُفرانُ الذُّنوبِ مُتجدِّدٌ مُستمِرٌّ معَ تجدُّدِ الإيمان وتناميه في القلب، وتجدُّدِ الجهاد؛ كلَّما دُعوا إلى إحقاقِ الحقِّ ورَدْعِ الظُّلم، ودلَّ الفعلُ بمادَّتِه

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 7/ 298.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 166، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 392.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 392.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 263.

على التَّغطيةِ والسِّتر، ومقتضى التَّغطيةِ المُسامحةُ والمُجاوزةُ وعدمُ النَّشرِ والفَضْحِ لتلك الذُّنوب.

دلالةُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَكُمْ﴾:

تحفيزُ الطَّاعة بذكرِ الاختصاصِ والغاية

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن مُتعلَّق ﴿يَغْفِرْ﴾ بالجارِّ والمجرور ﴿لَكُمْ﴾، في قولِه تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾؛ للدَّلالة على الاختصاصِ والغَرَضيَّة؛ تحفيزًا لهم على ما فُرِضَ عليهم من الإيمانِ والجهاد، حتّى إنَّ الغُفران يكونُ لهم وحدَهم دونَ مَن سواهم، ويتحقَّقُ لأجلِهم بجَعْلِ اللّه تعالى له غرَضًا يَصُبُّ في مصلحتِهم.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾:

أثمنُ التِّجارات التَّخلُّص من كلِّ الخَسارات

أضافَ النَّظمُ الكريمُ الذُّنوبَ إلى ضميرِ المخاطَبينَ، في قولِه تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾؛ للدَّلالة على تعيينِ تلك الذُّنوبِ وتعريفِها بتذكيرِ المخاطَبينَ بها؛ إذِ الإضافةُ إمّا للعهدِ؛ لأنَّ الذُّنوب معهودةٌ للمخاطَبينَ مَعلومةٌ لدَيهم، أو للاستغراق دلالةً على غُفرانِ جميعِ الذُّنوب المعلومةِ لدَيهم؛ وبذلك تُحقِّقُ التِّجارةُ كمالَ الرِّبح بالتَّخلُّصِ من كل أشكالِ الخَساراتِ السّابقة؛ لأنَّ للتِّجارة جانبين؛ تخليصٌ من أضرارٍ وخَساراتٍ سابقة، وربحٌ جديدٌ مُتنامٍ لهم.

معنى (الواوِ) في ﴿وَيُدْخِلْكُمْ﴾:

عطفُ السَّببيَّة يدلُّ على الأرباحِ الجديدةِ السَّنيَّة

لمّا كانت أعلى التِّجاراتِ تخليصًا من خساراتٍ سابقةٍ معَ أرباح جديدةٍ مُتنامية؛ عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن ذلك الرِّبحِ الوفيرِ الجديدِ من خلالِ واو العطف، في قولِه تعالى: ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ﴾؛ وذلك العطفُ للجملةِ الفعليَّةِ على ما قبلَها دالٌّ على التَّسبُّبِ والتَّرتُّب؛ إذ "لمّا قرَّعَ القلوبَ من كَدَرِ العقابِ والعِتاب؛ لذَّذَها بطيبِ الثَّوابِ، فقالَ: ﴿وَيُدْخِلْكُمْ﴾، أي: بعدَ التَّزكيةِ بالمغفرةِ رحمةً"[1]، فقد نجمَ عن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 37.

غُفرانِ الذُّنوب إدخالُ الجنّات، فالواوُ عاطفةٌ للمسبَّب على السَّبب، قال القونويُّ: "زيدَ في الجَواب إدخالُ الجنَّة بعدَ الوعدِ بالمَغْفرَة؛ إذِ الإنجاءُ من العذاب يَستلزمُهُما، لكنَّ دفْعَ المضرَّةِ لمّا كان أهمَّ من جَلْبِ المنفعة؛ اكتفى بالإنجاءِ من العذابِ أوَّلًا، والجَوابُ لمّا كان لائقًا بالبَسْط؛ اختيرَ الإطناب فيه ببيانِ أنَّ إنجاءَهُم من العذاب؛ بسَبَب المَغْفرَةِ وإدخالِ الجنَّة"[1].

معنى الفعلِ المضارع ﴿وَيُدْخِلْكُمْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

تعـدُّدُ الجنّات مُقتضٍ لتجدُّدِ الإدخالات

عطفَ النَّظمُ الكريمُ الجملةَ الفعليَّةَ المضارعيَّةَ على ما قبلَها، في قولِه تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ﴾؛ للدَّلالة على الحدوثِ والتَّجدُّدِ الاستمراريِّ؛ وبذلك يتشاكَلُ الإيمانُ والجهادُ الاستمراريّان المتجدِّدان معَ الغُفران والإدخالِ المُتجددين الاستمراريّين، فكلُّ جنَّةٍ يَدخلونها تُحْدِثُ لهم تجدُّدًا وارتياحًا وسعادةً، وآثرَ النَّظمُ الكريمُ الفعلَ المضارعَ المتعدّيَ بالهمزة؛ للدَّلالةِ على الجَعْلِ والتَّصيير؛ إذِ الدُّخولُ يقتضي جُهدًا للوصول، وأمّا الإدخال؛ فإنَّه وصولٌ سريعٌ حتّى إنَّهم يجدونَ أنفسهم داخلينَ بالجعل والتَّصيير، كما تُفيدُ التَّعدية أنَّ تلك الجناتِ مقفلةٌ لا يمكنُ دخولها من دون إدخالٍ وفعلٍ عظيم، معَ زيادةِ تشريفٍ للدّاخلين، الَّذين تهيَّؤوا لذلك الدُّخول الجَعليِّ.

دلالةُ اللَّفِّ والنَّشرِ:

التَّناسُقُ البديع والنَّظمُ المَنيع

لمّا فسَّر النَّظمُ الكريمُ التِّجارةَ بالإيمانِ باللّه ورسولِه والجهادِ في سبيله؛ رتَّبَ عليهما غفرانَ الذُّنوبِ وإدخالَ الجنّات، فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾... ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ﴾؛ واتَّكأ النَّظمُ الكريمُ على أسلوبِ اللَّفِّ والنَّشرِ المرتَّب؛ إذ الإيمانُ باللّه

(1) حاشية القونويّ وابن التّمجيد على تفسير البيضاوي: 19/ 76.

ورسولِه غفرانٌ وخلاصٌ من الذُّنوب، وبينَهما تناسُبٌ؛ إذِ الإيمانُ بهما تصديقٌ واعتقادٌ قلبيٌّ معنويٌّ، وغفرانُ الذُّنوبِ تخليصٌ من ذنوبٍ سابقةٍ وأخطاءٍ ماضية؛ والإيمان يَجُبُّ ما قبلَه، وهو رِبحٌ معنويٌّ، والجهادُ فعلٌ بدنيٌّ ومشقَّةٌ في العملِ، فناسبَهُ الإدخالُ للجنّات بكلِّ يُسرٍ وسُهولة، ولمّا كان الإيمانُ باللّه مع رسولِه؛ ذَكرَ النَّظمُ أنَّ الغُفرانَ لأجل الذُّنوبِ الماضية، ولمقام الجهاد في سبيل اللّه معَ الأموال والأنفس ذَكرَ الجنّاتِ المُغنيةَ عن الأموالِ، والمساكنَ الطَّيّبةَ المُرفِّهة للنُّفوسِ.

دلالةُ تقديمِ الغُفرانِ على الإدخال:

التَّخليةُ قبلَ التَّحليَة

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ حُصولَ الغُفران على الإدخالِ، في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ﴾؛ للدَّلالة على السَّببيَّةِ والمُسبَّبيَّة؛ إذِ التَّخليةُ قبلَ التَّحلية، فيتحقَّقُ في الذِّكر الغُفرانُ من الذُّنوب؛ ليأتيَ عقيبَهُ الإكرامُ والعَطاء.

دلالةُ التَّنكيرِ والجَمعِ في ﴿جَنَّٰتٍ﴾:

الجنّاتُ العظيمةُ لمَنْ بذلَ الأموالَ في نُصرةِ الحقيقة

نكَّرَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (الجنّات) مَجموعًا، في قوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى﴾؛ للدَّلالة على التَّعظيمِ والتَّفخيم والغَرابة، وأنَّها ليست من الجنّات الأرضيَّةِ المألوفة، كما دلَّ الجمعُ على الكثرةِ الكاثرةِ لها، فيكونُ من قبيل التَّوزيعِ، أي: يُدخلُ كلَّ واحدٍ منكم جنَّةً خاصَّةً به تحتَ تصرُّفه[1]، وتدلُّ مادَّة (الجنّات) على أنَّها مستورةٌ محميَّةٌ من العُيون، فهي جنّاتٌ محجوبةٌ لا ينظرُ الخارج منها إلى أهلِها وساكنيها لكثرةِ أشجارِها، قال الهرريُّ: "والجنَّةُ في اللُّغة: البُستانُ الَّذي فيه أشجارٌ مُتكاثِفةٌ مُظلَّلةٌ تسترُ ما تحتَها"[2]، وذلك في حدِّ ذاتِه نعيمٌ يطيبُ لساكنيها، ونلمح أنَّ هنالك

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 263.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 263.

صلةً بين (الأموال والجنّات)، فالمجاهدُ في سبيل الله استرخصَ المالَ، وبذلَهُ من أجلِ نُصرةِ دينِ الله، فكوفِئَ بما هو أعظمُ وألذُّ، وهي تلك الجنّاتُ، التي لا تُشترى بكلِّ أموالِ الدُّنيا.

دلالةُ الوصفِ بالفعلِ المُضارع ﴿تَجۡرِي﴾:

جَـرَيـانُ الأنـهـار من تحتِ الجِنانِ والأشجار

وصفَ النَّظمُ الكريمُ الجنّاتِ بالجملةِ الفعليَّة المضارعيَّة، في قولِه تعالى: ﴿وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ للدَّلالة على تقييدِ تلك الجنّات بجريانِ الأنهار من تحتِها، واختار الفعلَ المضارعَ؛ ليُفيدَ أنَّ ذلك الجريانَ للأنهارِ مُتجدِّدٌ مُستمرٌّ لا ينقطعُ، فهي ليست كأنهارِ الدُّنيا التي تتعرَّضُ للانقطاعِ والتَّوقُّف، كما تفيدُ مادةُ ﴿تَجۡرِي﴾ أنَّ للماء جَرَيانًا يُحَسُّ به، فهو لا يتوقَّفُ، ويُرى جَريانُهُ وجرياتُهُ، وذلك أطيبُ وأنفعُ من الماءِ الرّاكد.

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتُها:

منـابـعُ الأنـهـار الـفـوّارة تجري تـحـتَ الـجـنّات بغزارة

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بحرفِ الجرِّ ﴿مِن﴾، في قولِه تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ للدَّلالةِ على الابتداءِ المكانيِّ للجَرَيان، وذلك يدلُّ على أنَّ بَدءَ الجَريان من موضع تحتها، فهي جنانٌ واقفةٌ على منابع تلك الأنهار، فتبدأُ بالجَرَيان من موضع التَّحت؛ دلالةً على غرابةِ تلك الجنانِ الجاثمةِ على المنابع، فيُرى الجَريانُ بادئًا منها، أو لعلَّها يفور الماءُ من تحتِها، فتكونُ التَّحتيَّة كأنَّها المنابعُ التي تبدأُ منها الجَرَيات، وقالَ البقاعيُّ: "ودلَّ على قُربِ الجاري وتخلُّلِه الأراضيَ بالجارِّ، فقال: ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾"[1].

دلالةُ الإضافةِ في ﴿تَحۡتِهَا﴾:

الـجِـنـانُ بـلّـورٌ عـجـيـب، وبـدخـولِـهـا النُّفوسُ تَطيب

أضافَ النَّظمُ الكريمُ التَّحتيَّةَ إلى ضميرِ (الجنّات)، في قولِه تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ لتعيينِ تلك التَّحتيَّةِ وتحديدِها، والغرضُ من التَّحديد بيانُ تلك الجهة، ومن المعلومِ أنَّ الأنهارَ تَجري

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 37.

في جنانِ الدُّنيا، إمّا في وسَطِها أو بمُحاذاتها، فيكونُ تحديد التَّحتيَّةِ دلالةً على أنَّها كالبِلّور، فتُرى الأنهارُ جاريةً مِن تحتِها.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على الفاعِل:

تقديمُ المكان دالٌّ على غرابةِ تلك الجِنان

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ الجارَّ والمجرور على الفاعلِ، في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ للدَّلالةِ على الاهتمام بمكانِ الجَرَيانِ؛ لأنَّ تحديد المكان يدلُّ على أنَّها جنانٌ بلّوريَّةٌ مختلفةٌ عن الجنانِ الأرضيَّة.

دلالةُ التَّعريفِ والجمعِ في ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

بهجةُ الأنهار تُضفي بهجةً في نفوسِ الأبرار

عرَّفَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ مَجموعًا، في قولِه تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستغراقِ والشُّمول، فكلُّ الأنهار تجري من تحتِ تلك الجِنان، فتُضفي الأنهارُ بموسيقاها عذوبةً في الأسماع، وبمنظَرِها السّاحر رَوْنقًا وبَهجةً وضياء، قال الشَّربينيُّ مُبيِّنًا فائدةَ الأنهار: "فهي لا تزالُ غضَّةً زهراءَ، ولم يحتج هذا الأسلوبُ إلى ذكر (الخلود)؛ لإغناءِ ما بعدَهُ عنهُ"[1]، ويقصدُ ما يُفهَمُ من ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾.

الإسنادُ المجازيُّ في ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

جريانُ المقرِّ لصفاءِ الماءِ المُستَقِرِّ

أسندَ النَّظمُ الكريمُ الجريانَ للأنهار، في قولِه تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ إسنادًا مجازيًّا عقليًّا لعلاقةِ المكانيَّة؛ إذِ الأنهارُ - وهي الشُّقوق - لا تَجري، بل يَجري الماء في تلك الشُّقوق؛ مبالغةً في تصويرِ جريانِ الماء، حتَّى لَيُخيَّلُ للنّاظرِ أنَّ المكان هو الجاري من شدَّةِ صفاءِ الماء وبهائِه.

معنى (الواو) ودلالتُها في ﴿وَمَسَٰكِنَ﴾:

عطفَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الواو) المساكِنَ على الجنّات، في قولِه تعالى: ﴿وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ﴾

(1) الخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 4/ 279.

للجمعِ بينَهُما في حُكم الإدخال، فالجنّاتُ جزاءُ ما أنفَقوا من أموالٍ في سبيل الله عِوضًا عنها، والمساكنُ جزاءُ ما بذلوا من مُهَجٍ فيه، والتي تركَتْ باستشهادِها سَكَنَها الدُّنيويَّ، قال ابن عاشور: "وإنَّما خُصَّتِ (المَساكِنُ) بالذِّكرِ هُنا؛ لأنَّ في الجِهادِ مُفارَقَةَ مَساكِنِهم، فَوُعِدوا على تِلْكَ المُفارقَة الموقَّتةِ بِمَساكِنَ أبَديَّةٍ"[1]، والمسكَنُ من السُّكنى الذي يدلُّ على المكوثِ والاستقرارِ فيه بعدَ التَّنزُّهِ في الجِنان.

لا غُربةَ في الجِنان، بل رَفاهيةٌ وسكنٌ وأمان

دلالةُ التَّنكيرِ والجَمعِ في ﴿وَمَسَٰكِنَ﴾:

نكَّرَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (مساكن) وجمعَها، كما نكَّر لفظَ (جنّات) وجمعَها، في قوله تعالى: ﴿وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ﴾؛ للدَّلالة على الفَخامةِ والعظَمةِ والكثرةِ والتَّنوُّعِ، معَ كمالِ الجَمال والنِّعمةِ فيها، فهي ليست كمساكنِ الدُّنيا المَعروفة، قال البقاعيُّ: "ودلَّ على الكثرةِ المُفرِطةِ في الدّور بقولِه بصيغةِ مُنتهى الجموع: ﴿وَمَسَٰكِنَ﴾"[2].

جنّاتٌ لا توصَف ومَساكنُ لا تُعرَّف

دلالةُ النَّعت بـ ﴿طَيِّبَةٗ﴾:

وصفَ النَّظمُ الكريم المَساكنَ بأنَّها طَيّبةٌ في قولِه تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ﴾؛ للدَّلالة على أنَّها مُريحةٌ واسعةٌ مُترفَةٌ، يلتذُّ ساكنُها فيها؛ لما فيها من مظاهرَ تُعجِبُ النّاظرَ، وتُريحُ النَّفسَ، فهي معَ كثرتِها ووظيفتِها في السُّكنى تكون طيّبةً تَهْنَأُ النَّفسُ فيها وترتاحُ، فيكونُ الوصفُ للكشفِ والاحتراسِ، قالَ البقاعيُّ: "ولمّا كانتِ المساكنُ لا تروقُ إلّا بما يُقارِنُها منَ المَعاني الحسَنةِ، قالَ: ﴿طَيِّبَةٗ﴾"[3]، وصيغةُ (فيعلة) تدلُّ على كثرةٍ ومُبالغةٍ، خاصَّة أنَّها جاءت نكرةً تابعةً لموصوفِها.

الطِّيْبَةُ والهَناءة سكينةٌ وراحة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 195.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 37.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 37.

الموقعُ الإعرابيُّ ﴿فِي جَنَّٰتِ﴾:

طيّبةٌ في داخلِها، جميلةٌ في مَوقِعِها

بعدَ أنْ وصفَ النَّظمُ الكريمُ (المَساكنَ) بأنَّها ﴿طَيِّبَةً﴾، أتى بالصِّفةِ الثّانية ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ﴾، وهي جارٌّ ومجرورٌ في قوله تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ﴾؛ ليدلَّ على زيادةٍ في الأبَّهة والجمال، فالمساكنُ معَ كونِها طيِّبةً؛ فإنَّ مكانَها في جنّات عدن، فالظَّرفيَّةُ حقيقيَّةٌ، والغرضُ من الوصفِ تحديدُ موقعِها بعد أن حدَّد بالنَّعت طبيعتَها، فهي تَتَّصِفُ من داخلِها بأنَّها طيّبةٌ، ومن خارجِها بأنَّ موقعَها في جنّاتِ عدن، قال الهرريُّ: "وهذا ظرفٌ صفةٌ مختصَّةٌ بـ(مساكن)"[1]، ويحتملُ أنْ يكون ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ﴾ حالًا، وهي بيانٌ لهيئةِ تلك المساكنِ، وقيدٌ وتعليلٌ لوصفِها بالطَّيِّبة، لكنَّه قيدٌ أفرزَ جمالًا، وتعليلٌ أضفى رَوْنقًا.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ﴾:

جنّاتُ عَدن لأهلِ المساكنِ إقامةٌ ووطَن

أضافَ النَّظمُ الكريمُ الجنّات إلى ﴿عَدْنٍۚ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ﴾، إمّا للدَّلالة على المعنى الإضافيِّ؛ إذِ العَدْنُ يدلُّ على الخُلودِ والدَّوام والاستمرار، قال النَّسَفيُّ: "يقالُ: عدنَ بالمكان؛ إذا أقامَ به"[2]، فالمساكنُ في جنّاتٍ دائمةٍ باقية، فليستِ المساكنُ في أماكنَ زائلةٍ وفانيةٍ كمساكنِ الدُّنيا، قالَ البقاعيُّ: "ولمّا كانتْ لا يُرغَبُ فيها إلّا بدوامِ الإقامة؛ بيَّنَ صلاحيّتَها لذلك بقوله: ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ﴾، أي: بساتينَ هي أهلٌ للإقامةِ بها، لا يُحتاجُ في إصلاحِها إلى شيءٍ خارجٍ يحتاجُ في تحصيلِه إلى الخروجِ عنها لهُ، ولا آخرَ لتلك الإقامة"[3]، وإمّا لأنَّ ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ﴾ علَمٌ ولقبٌ على جنّات معيَّنة، فالإضافةُ على الأوَّل لمُجرَّد التَّخصيص، وتكونُ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 263.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 477.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 38.

من إضافةِ الموصوف إلى الصِّفة، وعلى الثّاني للتَّعريفِ والتَّعيين لعلَميَّة عَدْن، واندفعَتْ بهذه الإضافةِ ما يُشعر به (المَسكنُ) من عدمِ البقاءِ والخُلود.

دلالةُ الفصلِ في ﴿ذَٰلِكَ﴾:

الإدخالُ في الجنّات فوزٌ بالمقامات

فصلَ النَّظمُ الكريمُ قولَه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لكونِه بمنزلةِ البيان لما قبلَهُ، فالعلاقةُ بين الجُملتين كمالُ الاتِّصال، والغرض من ذلك الفصلِ الإفصاحُ عن ذلك النَّعيم المُتمثِّل بالإدخالِ في الجنّات والنَّجاة من النّار، فهو تذييلٌ دالٌّ على التَّوضيح والبيانِ، والحُكم على ذلك الإدخالِ بأنَّه فوزٌ عظيمٌ.

نُكتَةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

الإشارةُ للنَّعيم تدلُّ على ثوابٍ مَحسوسٍ عظيم

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ باسم الإشارةِ البعيد، في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾؛ للإشارةِ إلى مجموعِ ما وقعَ الحديثُ عنه من غُفرانِ الذُّنوب وإدخالِ الجنّات والمَساكن، واختارَ اسمَ الإشارةِ للبعيدِ؛ للدَّلالة على التَّعظيم والتَّفخيم، وأشارَ إليه للدَّلالة على كمالِ تمييزِه، حتّى إنَّ ذلك المشارَ إليه قد صارَ مُشاهَدًا مَرئيًّا مَحسوسًا.

دلالةُ التَّعريفِ في ﴿ٱلْفَوْزُ﴾:

أعظمُ الفوزِ النَّعيمُ بلا عَوْز

عرَّفَ النَّظمُ الكريمُ الخبرَ في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾؛ للدَّلالة على الجنسِ والكَمال، فهو يُمثِّلُ حقيقةَ الفوزِ وكمالَه الذي لا يُدانيه فوزٌ ولا كمالٌ؛ إذ لا يُقارَنُ أيُّ فوزٍ بفوزِ الخَلاص من الذُّنوب ودُخولِ دارِ النَّعيم.

دلالةُ تعريفِ الطَّرفينِ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ﴾:

تشويقُ المُخاطَبين بما أُعِدَّ للفائزين

عرَّفَ النَّظمُ الكريمُ طَرفَي الحُكم، في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾؛ للدَّلالة على الحصرِ والقصرِ الادِّعائيِّ، وهو من قَصرِ الصِّفة في الموصوف، أي: ذلك هو الفوزُ العظيمُ لا غيرُ، وفيه تشويقٌ للمخاطَبين أن يَتسابقوا إليه، ويَعملوا جاهدينَ لتحقيقِه وبُلوغِه.

دلالةُ النَّعت بـ ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾:

الكثرةُ الكمّيَّةُ والفخامةُ النَّوعيَّة بالفوزِ بالرَّحمةِ الإلهيَّة

نعتَ النَّظمُ الكريمُ الفوزَ بالعَظَمةِ، في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾؛ للدَّلالة على المدحِ والمُبالغة في ذلك الفوز من حيثُ الكمُّ والكيفُ، فإنَّ العَظَمة تدلُّ على الكثرةِ الكمّيَّة والفَخامةِ النَّوعيَّة، واستعملَ صيغةَ (فعيل) الدّالَّةِ بوضْعِها صفةً مشبَّهة على الثُّبوتِ والاستمرارِ لتلك العَظَمةِ، فعَظَمة ذلك الفوزِ دائمةٌ، وفخامتُهُ مُستمرَّة لا تنقطِعُ.

دلالةُ الوصلِ في ﴿وَأُخۡرَىٰ﴾:

الجمعُ بينَ النَّعيمِ الأُخرويِّ والتَّمكينِ الدُّنيويِّ

عطفَ النَّظمُ الكريمُ الجملةَ الاسميَّةَ، في قولِه تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ﴾ على ما قبلَها؛ للدَّلالة على الرَّبطِ والجمعِ بينَ النَّعيم الأُخرويِّ المتمثِّلِ بغُفران الذُّنوبِ وإدخالِ الجنّات، وبينَ النَّعيمِ الدُّنيويِّ المتمثِّل بتحقيقِ ما يُحبُّه المجاهدُ، ويَرجوه من النَّصر على الأعداءِ والفتحِ للبُلدان.

دلالةُ المغايرةِ في عطفِ الاسميَّةِ على الفعليَّة:

النِّعَمُ الدُّنيويَّة آنيَّةٌ ثابتة، والنِّعَمُ الأُخرويَّةُ مُتجدِّدةٌ مُستمرَّة

عطفَ النَّظمُ الكريمُ الجملةَ الاسميَّة: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ﴾، على الجُملةِ الفعليَّة: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾[1]؛ للدَّلالة على المُغايرةِ بينَ النَّعيمَين في التَّجدُّدِ الاستمراريِّ والثُّبوتِ الدّائميِّ، فإنَّ غُفرانَ الذُّنوب متجدِّدٌ مُستمرٌّ مع تجدُّدِ الإيمانِ وتَناميه، وإدخالَ الجنّات والنَّعيمَ الأخرويَّ مُتجدِّدٌ مُستمرٌّ معَ استمراريَّةِ الجهاد وتقديمِ الأموال والأنفُس، فلا يشعرُ الدّاخلُ في ذلك النَّعيم بمَلَلٍ؛ لما يَرى من نِعَمٍ مُتجدِّدة متنوِّعة، وأمّا النَّعيم الدُّنيوي؛ فهو يقعُ دفعةً واحدة؛ إذ شعورُ النَّصر والفتحِ يكونُ في ساعتِه ويَنقضي، فلا شيءَ يعدلُ لذَّةَ الآخرة، ولا حلاوةَ تُساوي شيئًا من نعيمِها، قال ابنُ عاشور: "وجيءَ بالاسميَّةِ؛ لإفادَةِ الثُّبوتِ والتَّحَقُّقِ"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 195.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 195.

الاختلافُ في تحديدِ الموقعِ الإعرابيِّ لـ (أخرى):

أثرُ البيان في تحديدِ الإعرابِ ووجهِ الرُّجحان

اختلفَ النَّحويّونَ في تحديدِ الموقعِ الإعرابيِّ لـ(أُخرى)، في قولِه تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ﴾؛ قال الطَّبريُّ: "اختلفَ أهلُ العربيَّة فيما نُعِتَتْ به، فقال بعضُ نحويّي البصرة: (وتجارةٍ أُخرى)، فعلى هذا القولِ يجبُ أن يكونَ (أخرى) في موضعِ خفضٍ عطفًا به، وقد يحتملُ أنْ يكونَ رَفعًا على الابتداء، وكان بعضُ نحويّي الكوفةِ يقول: هي في موضعِ رفعٍ، أي: (ولكم أُخرى في العاجل معَ ثوابِ الآخرة)، ثمَّ قال: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مفسِّرًا لـ (أُخرى)، والصَّوابُ من القولِ في ذلك عندي القولُ الثّاني، وهو أنَّه مَعنيٌّ به: (ولكم أُخرى تُحبّونها)؛ لأنَّ قوله: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾ مُبيِّنٌ عن أنَّ قولَه: ﴿وَأُخۡرَىٰ﴾ في موضعِ رفعٍ، ولو كان جاءَ ذلك خفضًا؛ حَسُنَ أنْ يُجعلَ قولُه: ﴿وَأُخۡرَىٰ﴾ عطفًا على قوله: ﴿تِجَٰرَةٖ﴾، فيكونَ تأويلُ الكلام حينَئذٍ لو قُرِئَ ذلك خفضًا: (وعلى خُلَّةٍ أُخرى تُحبّونها)"[1]، وضعَّفَ الخفضَ ابنُ عطيَّة أيضًا من جهةِ المعنى، فقال: "لأنَّ هذه (الأخرى) ليستْ ممّا دَلَّ عليه، إنَّما هي ممّا أُعطيَ ثمنًا وجزاءً على الإيمانِ والجهادِ بالنَّفس والمالِ"[2].

دلالةُ صيغةِ (أُخرى):

المُغايرةُ بينَ النِّعمتينِ والفرقُ بينَ المزيَّتين

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بصيغةِ المؤنَّثِ على وزنِ (فُعلى)، في قولِه تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّها صفةٌ لمحذوفٍ تقديرُهُ: (نعمة) تضافُ إلى تلك النِّعَم السّابقة، و(مزيَّةٌ) تُحتسَبُ مع تلك المزايا السّابقة، قال أبو حيان: "﴿وَأُخۡرَىٰ﴾ صِفَةٌ لِمَحْذوفٍ، أي: ولَكُم مَثوبَةٌ أُخرَى، أوْ نِعْمَةٌ أُخْرَى عاجِلَةٌ إلى هَذِهِ النِّعمَةِ الآجِلَةِ"[3]، كما أنَّ (أُخرى) تدلُّ بمادَّتِها على المُغايرة والمُباينة بينَ النِّعمتين، فإنَّ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 364.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 304.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 168.

هذه نعمةٌ محبوبةٌ لا تحتاجُ لترغيب، وتلك نعمةٌ مكروهةٌ لما فيها من تقديمِ الأموال والنُّفوس، فتحتاجُ إلى تشويقٍ وتحسينٍ، كما أنَّها نعمةٌ عاجلةٌ وتلك نعمةٌ آجِلة، ومن ثَمَّ قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ النَّعيمَ المتعلِّقَ بالآخرة على النَّعيم المُتعلِّق بالدُّنيا، واستغرقَ النَّظمُ الكريمُ في وصفِ النَّعيم الأُخرويِّ لبقائِهِ، وخاضَ في تفاصيلِه؛ تشويقًا وتأنيسًا للقلوب، واختصرَ في النَّعيم الدُّنيويِّ لكونِه العاجلَ المرغوبَ فيه والمعلومَ.

النِّعمةُ المَحبوبة تُفسِّرُ النِّعمةَ المَكروهة

دلالةُ النَّعتِ بالجملة الفعليَّة المضارعيَّة ﴿تُحِبُّونَهَا﴾:

نعتَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (أُخرى) بالجملةِ الفعليَّةِ المُضارعيَّة، في قولِه تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾؛ للدَّلالة على تخصيصِ تلك النِّعمة الأُخرى وتقييدِها بكونِها محبوبةً للمُخاطَبين، قال ابن عاشور: "ووصَفَ (أُخرى) بِجُملَةِ ﴿تُحِبُّونَهَا﴾؛ إشارَةً إلَى الامتِنانِ عليهم بإعطائِهم ما يُحِبّونَ في الحَياةِ الدُّنيا قَبلَ إعطاءِ نَعيمِ الآخِرَةِ"[1]، وفُهِمَ بدلالةِ المُقابلة مع تلك النِّعَمِ السّابقة أنَّ تلك النِّعمَ مكروهةٌ للمُخاطَبين؛ لأنَّ الإنسان فُطِرَ على كراهةِ ما يُتلِفُهُ، ومَحبَّةِ ما يحصلُ عليه، ويَجنيه، ولذا رغَّب بتلك النِّعمةِ تشويقًا وتأنيسًا، قال أبو حيّان: "ووصْفُ (أُخْرَى) بِـ ﴿تُحِبُّونَهَا﴾؛ لأنَّ النَّفْسَ قَد وُكِّلَت بِحُبِّ العاجِلِ، وفي ذَلِكَ تَحْريضٌ على ما يُحصِّلُ ذَلِكَ، وهو الإيمانُ والجِهادُ"[2]، وعبَّر النَّظمُ الكريمُ عن تلك المحبَّة بصيغةِ المضارعِ؛ للدَّلالة على تجدُّدِ ذلك الحُبِّ واستمراريَّتِه من جميعهم، وشدَّةِ تفكيرهم في تحصيلِ النَّعيم الدُّنيويِّ من خلالِ المُجاهَدة والمقاتلةِ في سبيل اللّه، ولذا أُسنِدَ الفعلُ إلى ضميرِ الجماعةِ، قال الهرريُّ: "تعريضٌ بأنَّهم يُؤثِرونَ العاجِلَ على الآجِلِ، وتوبيخٌ على مَحبَّتِهِ، وهو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 196.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 168.

صفةٌ بعدَ صفةٍ لذلك المَحذوف"[1]، وجمعَ البقاعيُّ فائدتينِ لهذا الوصفِ ظاهرةً وباطنةً، بقوله: "ففي ظاهرِ هذه البُشرى تشويقٌ إلى الجهادِ وتحبيبٌ، وفي باطنها حثٌّ على حُبِّ الشَّهادة بما يشيرُ إليه منَ التَّوبيخِ أيضًا على حبِّ العاجل، والتَّقريع"[2].

دلالةُ الموقعِ الإعرابيِّ لـ ﴿نَصۡرٌ﴾:

كـمـالُ الـظَّـفَـر بـالـوصـولِ إلى النَّصْر

يحتملُ لفظُ ﴿نَصۡرٌ﴾ الواردُ في قولِه تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أنْ يكونَ خبرًا عن ﴿وَأُخۡرَىٰ﴾، فيكونَ الحُكمُ على تلك النِّعمة المُغايرةِ بأنَّها نصرٌ من الله، فالنِّعمةُ هي نَصْرٌ، والإخبارُ بالمصدرِ عن النِّعمة يفيدُ المُبالغةَ بأنَّها حقيقةُ النَّصرِ وكمالُهُ، ويَحتملُ أنْ يكون بدلًا بتقديرِ خبرٍ محذوفٍ لـ(أخرى)، والتَّقديرُ: (وأُخرى لكم نصرٌ من الله)؛ فيكون تقريرًا وتوضيحًا لتلك النِّعمة الأخرى، بعدَما أخبرَ عنها بكونِها لكُم دونَ مَن سِواكم، ويمكن أنْ يكونَ خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ تقديرُهُ: (وأُخرى لكُم هي نَصْرٌ)[3]، وحينَئذٍ تكونُ الجملة مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا؛ لعلاقةِ شِبه كمالِ الاتِّصال.

دلالةُ التَّنكيرِ في ﴿نَصۡرٌ﴾:

النَّصرُ العظيم لتأييدِ العظيمِ الحكيم

نكَّرَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (النَّصر)، في قولِه تعالى: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالة على التَّعظيم والتَّفخيم لذلك النَّصر[4]، وكيف لا يكونُ عظيمًا، وهو صادرٌ من الله تعالى وتأييدِه وتسديدِه، كما يحتملُ التَّنكير أنْ يكون دالًّا على النَّوعيَّة؛ لأنَّ غَلَبةَ القِلَّة في العُدَّة والعدد على الكثرة أمرٌ غريبٌ، ممّا يدلُّ على نوعٍ خاصٍّ في النَّصر غيرِ مَألوف.

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 265.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 39.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 265.
(4) القزوينيّ، الإيضاح: 2/ 36.

معنى المتعلّق ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ودلالتُه:

الابتداءُ المجازيُّ مانعٌ من التَّصوُّرِ الوهميّ

استعملَ النَّظمُ الكريمُ المتعلّقَ شبه الجُملة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ نعتًا للنَّصرِ، في قوله تعالى: ﴿نَصۡرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ لتحديدِ المكانِ الَّذي يصدرُ منه النَّصر، فالابتداءُ هنا مجازيٌّ بتشبيه ما يَحصُلُ بإذن الله وأمرِه وفعلِه بالمكان والمصدرِ لذلك الفعلِ؛ دفعًا لمَن يتوهَّمُ الاعتزازَ بالقُدرات الذّاتيَّة والإمكاناتِ الاستعداديَّة، فإنَّ النَّصرَ لا يكون إلّا بأمرِ الله تعالى.

دلالةُ الاسمِ الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾:

تعليقُ الحُكم بشبيه المشتقِّ دالٌّ على التَّعليل

استعملَ النَّظمُ الكريمُ العلَمَ الجليلَ، في قولِه تعالى: ﴿نَصۡرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّعليلِ لحصولِ النَّصر؛ إذ الاسمُ الجليل كالمشتقِّ في تعليقِ الحُكم عليه، فيُفيدُ العِلّيَّةَ له[1]، فكأنَّ التَّقدير: النَّصرُ من الله؛ لأنَّه الدّالُّ على الذّات المُستجمعةِ لصفاتِ الجَلال والكَمال.

وضْعُ الظّاهرِ موضِعَ المُضمَر ﴿ٱللَّهِ﴾:

التَّصريحُ بالاسم الجليل لتحقيقِ مَعنى التَّعليل

يحتملُ أنْ يكونَ التَّصريح بالاسم الجليل من وضْعِ الظّاهر موضِعَ المُضمَرِ، في قوله تعالى: ﴿نَصۡرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، بأن يكون الخطابُ في صدرِ الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾، صادرًا من جنابِ الله تعالى كما هو المتبادِر، فكان حقُّ النَّظم أن يكونَ (نصري)، لكنَّه أظهرَ المضمرَ لتعليلِ ذلك الانتصارِ العظيم على الأعداءِ، وتذكيرِ المقاتلينَ في سبيل الله بأنَّ النَّصرَ منه على سبيلِ التَّصريحِ باسمِه العلَم الجليل دونَ الآلهةِ المزعومةِ والأفكار الموهومة، وأمّا إنْ كان الخطابُ صادرًا من الرَّسول ﷺ بأنْ يكونَ التَّقدير: (وقلْ يا محمَّد للمؤمنينَ هل أدلُّكم)، فلا يكون من وضعِ الظّاهرِ موضِعَ المضمَر، قال ابن عاشور: "وذِكرُ اسمِ الجَلالَةِ يَجوزُ أن يَكونَ إظهارًا

(1) حاشية اليزديّ على تهذيب المنطق للتفتازاني، ص: 10.

في مَقامِ الإضمارِ، على احتِمالِ أن يَكونَ ضَميرُ التَّكَلُّمِ في قَولِهِ: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾ كَلامًا مِنَ اللّه تعالى، ويَجوزُ أنْ يَكونَ جاريًا على مُقْتَضَى الظّاهِرِ إنْ كانَ الخِطابُ أُمِرَ به رَسولُ اللّه ﷺ بِتَقديرِ: (قُل)"[1].

دلالةُ عطفِ اللّازمِ الأخصِّ على الملزومِ الأعمِّ ﴿وَفَتۡحٞ﴾:

الفتحُ كمالُ النَّصرِ، وبه تَسْعَدُ النُّفوسُ وتُسَرُّ

عطفَ النَّظمُ الكريمُ (الفتح) على (النَّصر)، في قولِه تعالى: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞ﴾؛ للدَّلالة على الجمعِ والارتباطِ، وللمُغايرة بينَ النَّصر على الأعداءِ والفتحِ للبُلدان؛ إذِ النَّصرُ ملزومٌ للفتح، فيكون الفتحُ لازمًا لهُ ومُسبَّبًا عنه، ولذا كانا نعمةً واحدةً في الحقيقة، ويُفهَمُ من عطفِ اللّازم الأخصِّ على الملزوم الأعمِّ أنَّ الفتحَ كمالُ النَّصر وغايتُهُ ونِهايتُهُ، ومِن ثَمَّ قَدَّمَ النَّظمُ الكريمُ النَّصرَ على الفتحِ؛ حتّى ينتقلَ من الأعمِّ إلى الأخصِّ.

دلالةُ التَّنكيرِ في ﴿وَفَتۡحٞ﴾:

كرامةُ الفتحِ من كمالِ المنْحِ

نكَّرَ النَّظمُ الكريمُ (الفتحَ)، في قوله تعالى: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞ﴾؛ للدَّلالة على التَّفخيم والتَّعظيم لذلك الفتحِ المَحبوب، وكيف لا يكونُ عظيمًا، وهو يصدُرُ من اللّه تعالى؟ كما يحتملُ التَّنكيرُ أن يكونَ دالًّا على النَّوعيَّة[2]؛ للإشارة إلى أنَّه نوعٌ مختلفٌ وغريبٌ؛ إذ كيف يفتحُ المُستضعفون الأقطارَ والبُلدان؟.

دلالةُ النَّعت بـ ﴿قَرِيبٞ﴾:

الفتحُ المُستبعَد قريبٌ ومُسَدَّد

نعتَ النَّظمُ الكريمُ الفتحَ بـ(القُرب)، في قوله تعالى: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ المحبوب لديهم أن يكونَ الفتح قريبًا لا بعيدًا؛ إذِ النُّفوسُ ترغبُ بقُرْبِ حُصول النَّتائجِ عن الأفعالِ والأعمال، وتكرهُ الانتظارَ، وتملُّه، وفي ذلك وعدٌ من اللّه تعالى للمُخاطَبين بأنَّ النَّصرَ الَّذي تستبعدونَ حصولَه واقعٌ بإذن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 196.
(2) القزوينيّ، الإيضاح: 2/ 36.

اللّه، والفتحَ الذي تستبعدونَه قريبُ التَّحقُّقِ والوقوع، واختار النَّظمُ الكريمُ صيغةَ (الصِّفة المشبَّهة) الموضوعةِ؛ للدَّلالةِ على الثُّبوت والدَّوام؛ لإفادةِ أنَّ ذلك القُربَ ثابتٌ دائمٌ.

دلالةُ الاحتباك:

تصويرُ الفتح والانتصار بما يَستوجِبُ كلٌّ منهما بالاستِئثار

استعملَ النَّظمُ الكريمُ الاحتباكَ البديعيَّ، في قولِه تعالى: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾؛ إذ وصفَ النَّصرَ بأنَّه ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾، ولم يذكُرِ القُربَ معه، ووصفَ الفتحَ بـ﴿قَرِيبٞۗ﴾، ولم يذكرْ أنَّه من اللّه، فيكونُ قد حذفَ من الأوَّلِ القُربَ لدلالة الثّاني، وحذفَ المتعلِّقَ من الثّاني لدلالةِ الأوَّل اكتفاءً، ويكونُ التَّقدير: (نصرٌ قريبٌ من اللّه وفتحٌ قريبٌ من اللّه)، وإنَّما ذكرَ المتعلِّق ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مع النَّصر دفعًا لما يتوهَّمُهُ المقاتلونَ من انتصارٍ بالنَّفس والبطولة والشَّجاعة، فأوضحَ أنَّه من اللّه، في حين أنَّ الفتح لا يشكُّ أحدٌ بعدَ العِلم بأنَّ النَّصر من اللّه أنَّ الفتح منه تعالى.

معنى (الواو) في ﴿وَبَشِّرِ﴾:

الرَّبطُ بين الأهدافِ والدَّلالات موضِّحٌ للمعاني والتَّصوُّرات

تحتملُ (الواو) في ﴿وَبَشِّرِ﴾ أنْ تكونَ لعطفِ الجملةِ الإنشائيَّة: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على الجملة الإنشائيَّةِ الواردةِ في صدرِ الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾، والغرضُ من ذلك الرَّبطُ بينَ غَرض وغَرض، فالغرضُ الأوَّل من الإنشاء: عَرْضُ اللّهِ تعالى الدَّلالةَ على ما يُسعدُهم في الدُّنيا والآخرة، وغرضُ الجملة المعطوفةِ: أمرُ النَّبيِّ ﷺ بتبشيرِ المؤمنينَ بحصول النَّصر والفتحِ القريبِ المحبوبِ لهم، فيكون هنالك جمعٌ بين غَرَضينِ وهَدَفين ظهرا من خلال العطفِ، هذا إن كان العَرْضُ للدَّلالة من جناب الحقِّ تعالى، فإنْ كان من جنابِ الرَّسول ﷺ، فيكون العطفُ عرضَ الدَّلالةِ وإحداثَ البُشرى منه ﷺ، في حين ذهبَ الرّازيُّ إلى أنَّه: "عَطْفٌ على ﴿تُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأنَّهُ في مَعْنَى الأمرِ، كَأنَّهُ قيلَ: آمِنوا، وجاهِدوا؛ يُثِبْكُمُ

اللهُ، ويَنصُركُم، وبَشِّر يا رَسولَ الله المؤمِنينَ بِذَلِكَ"[1]، وهذا مبنيٌّ على أنَّ الخطابَ من جنابِ الحقِّ تعالى.

دلالةُ فعلِ الأمرِ (بَشِّرْ) مادَّةً وصيغةً:

استعملَ النَّظمُ الكريمُ فعلَ الأمر، في قولِه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ للدَّلالة على الوجوبِ؛ واختارَ فعلَ التَّبشيرِ؛ لكونِه حديثًا بما يُسِرُّ، ويُفرِحُ القلبَ، ويُثلِجُ الصَّدر؛ إذ بمُجرَّدِ سماعِه يُدرك أنَّ المُتحدَّثَ عنه من قبيلِ الخَير.

التَّبشيرُ للمُؤمنين دعوةٌ لكلِّ الرّاغبين

الالتفاتُ وعدمُهُ في ﴿وَبَشِّرِ﴾:

في تعيينِ صدورِ الخطابِ، في قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ احتمالان؛ فإمّا أن يكون الخطاب من جناب الله ﷻ، وحينَئذٍ يكونُ المخاطَبُ في: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هو النَّبيَّ ﷺ، فيكون الحقُّ تعالى قد خاطبَ الَّذين آمنوا بذلك، كما خاطبَ النَّبيَّ ﷺ بالأمرِ بالتَّبشير، ولا يتحقَّقُ الالتفاتُ حينَئذٍ، وإمّا أن يكون الخطابُ من جنابِ الرَّسول ﷺ، قال ابن عاشور: "فَيَكونُ الأمرُ في ﴿وَبَشِّرِ﴾ التِفاتًا مِن قَبيلِ التَّجريدِ، والمَعنَى: وأُبَشِّرُ المؤمِنينَ"[2]؛ إذ جرَّدَ من ذاته الشَّريفة ذاتًا، فخاطبَها؛ للدَّلالة على الحرصِ على التَّبشيرِ، حتّى إنَّه أمرَ ذاتَهُ بذلك، ولم يقل: (وأُبشِّرُكم).

حِرْصُ النَّبيِّ ﷺ على التَّبشير؛ لأنَّه النَّذيرُ البشير

دلالةُ التَّعريفِ في ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

عرَّفَ النَّظمُ الكريمُ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ للدَّلالة إمّا على الجنسِ المفيدِ للاستغراق، فيكون التَّبشيرُ لكلِّ المؤمنينَ في زمنِه المُبارك ومَن جاءَ بعدَهم، وإمّا على أنَّها موصولٌ اسميٌّ، أي: الَّذين اتَّصفوا بالإيمان، فتكون هنالك إشارةٌ إلى علَّةِ الأمر بالتَّبشير؛ إذ تعليقُ الحُكم بالمشتقِّ يدلُّ على

الإشعارُ بأنَّ صفةَ الإيمان هي التي تَقتضي هذه البِشارة

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 532.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 197.

عِلّيَّة المأخَذِ فيه، وقد افتُتحت الآيةُ بخطابِ المؤمنين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾، وخُتِمت بالبشارةِ للمُؤمنين، ومِن ثَمَّ كان هنالك وضعٌ للظّاهر موضِعَ المُضمَر؛ "للإشعار بأنَّ صفةَ الإيمان هي التي تَقتضي هذه البِشارة"[1].

دلالة الإظهار في موضع الإضمار:

في وضع الظّاهر موضعَ المُضمر؛ إذ قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ولم يقل: و(بشرهم)؛ دلالةٌ على أنَّهم إنَّما استحقّوا البشارة بما حقَّقوه من الإيمان، والطّاعة والإذعان، قال الطَّيبيُّ: "ووضَعَ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ موضِعَ الضَّمير؛ للإشعار بأنَّ صفةَ الإيمان هي التي تَقتضي هذه البِشارة"[2].

الإظهار اهتمامٌ واحتفاء، وتعليل لموجب الإعطاء

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجهادُ والقتال:

القتالُ مُجابهة بالوسائلِ المُؤدّية إلى القتل، فيكون استعمالُهُ خاصًّا بالحروب والمعارك، وأمّا الجهادُ؛ فقد يكون بالقتالِ أيضًا، وقد يكونُ ببذلِ المالِ والوقتِ والصِّحَّة من أجل نصرةِ الله تعالى ومُجابهةِ النَّفس وأهوائِها والظّالمينَ وشُرورِهم، فالغايةُ ساميةٌ ونافعةٌ للفردِ والمُجتمع، فيكون الجهادُ أعمَّ من القتال، وأعظمُ الجهاد مجاهدةُ النَّفس على هَواها، ولذا يُندَبُ استعمالُها في التَّعبير القرآنيِّ على القتالِ الَّذي قد يكونُ لغاياتٍ غيرِ ساميةٍ.

الجهادُ أعمُّ مُطلقًا من القتال

المَسكَنُ والمَنزِلُ والبيتُ:

يطلقُ لفظُ (البيت) على المكانِ الَّذي يبيتُ فيه الشَّخصُ ليلًا؛ لأنَّه من البيتوتة والاستقرار اللّيليِّ خاصَّةً في المكان، فهو بمعنى (الغُرفة) في عَصرِنا الحاضر، التي يَلجَأُ إليها صاحبُ الدّارِ لغرضِ النَّوم والرّاحة بعدَ تعبِ النَّهار.

البيتُ مكانُ البيتوتةِ، والمنزلُ مكانُ النُّزول في الطَّريق، والمسكَنُ مكانُ السُّكنى والإقامة

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 395.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 395.

وأمّا (المَنزِلُ)؛ فهو اسمُ مكانٍ يَنزلُ فيه المسافرونَ في الطَّريق، وكأنَّهم كانوا على قارعةِ الطَّريق يَسيرونَ، فنزلوا فيه، وانحدَروا إليه جزءًا من الوقت.

وأمّا المَسكَنُ؛ فهو اسمُ مكانٍ للسُّكنى بعدَ الحركةِ والتَّعب، فهو يسكُنُ إليه، ويرتاحُ فيه.

(عَدَنَ) و(خَلَدَ):

عَدَنَ بالمكان: أقامَ فيه إقامةً طيّبةً ذاتَ بهجةٍ ونعيم، ويستلزمُ ذلك في الجنّاتِ الخلودَ الزَّمانيَّ، وأمّا خلدَ بالمكانِ؛ فأقام فيه طويلًا، والعَدْن فيه إشارةٌ إلى مكانٍ، والخُلْدُ فيه إشارةٌ إلى بقاءٍ زمانيٍّ طويلٍ أوْ دائمٍ.

العَدْنُ مَكانيٌّ، والخُلودُ زَمانيٌّ

النَّصرُ والفتحُ:

كلُّ فتحٍ نصرٌ، وليس كلُّ نصرٍ فتحًا، فقد يتحقَّقُ النَّصرُ على الأعداء، لكنْ لا يَنتهي بفتحِ بِلادهم، فالنَّصرُ أعمُّ منَ الفتح، لكنْ إذا فُتحتِ البلدانُ أمامَ المقاتلين؛ فإنَّ النَّصرَ مُتحقِّقٌ، سواءٌ كان النَّصرُ بالسَّيف، أو بالرُّعبِ، أو بالمُصالحةِ.

الفتحُ أخصُّ مُطلقًا من النَّصر

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والستون،
سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والستون، سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 61 ، 814 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-645-72-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 61 : المجلد الحادي والستون، سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-645-72-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6860354 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"